

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إبراهيم نصر الله

عوْ

A.M.

الجنـرال لا ينسى كلابـه!

الطبعة الثالثة

IBRAHIM NASRALLAH
HOWL

Friday
25/1/2013
Riyadh



أربع شخصيات تتصارع في هذه الرواية: جنرال، كاتب، قارئ وكلب.

رواية نادرة في كتابتنا العربية، حيث تطرح الصراع الحاد والشرس بين الدكتاتورية وأحلام الإنسان البسيطة، وتكشف محاولة تحويل هذا الإنسان إلى مسنن في دولاب السلطة، ليكون بالتالي جزءا من لعبتها وألعابها.

وبالقدر الذي ترصد فيه (عَوْ) نمو الوعي السلطوي، ترصد بالمقابل ظاهرة سقوط المثقف في شرك الدعوة إلى تعايش المبدع والسلطة، أو ما يُسمّى تجسير الهوة بين المثقفين والسلطة!

واللافت في هذه الرواية، التي تعتبر الأولى بين الروايات التي تناولت هذا الموضوع عربياً: أنها بالقدر الذي تطرح فيه خطابها بوضوح ترتكز على بنية فنية حديثة مركّبة، كما ان إمكانية قراءتها على أكثر من مستوى يمنحها قدرة خاصة على تجاوز جغرافيتها..

ولأن الفنون المرئية أضحت منافسة للأدب فإن نصر الله نزع إلى أن تستفيد الرواية من تقنيات الصورة المرئية بحيث يرى القارئ مشهداً متحرّكاً مع اعتماد التقطيع والمشاهد القصيرة...

.. إسهام كبير في بناء الرواية العربية وفي دعم واقعيتها الجديدة محتوى وشكلاً وبناء ولغة وواقعاً محمّلاً بكثير من العناصر التخييلية الترميزية الإيحائية، بحيث تعطي القارئ فرصة التقاط ما وراء المشخّص كما تعطيه فرصة معرفة التعقيدات.

جريئة، ساخرة، ومبكية في آن.

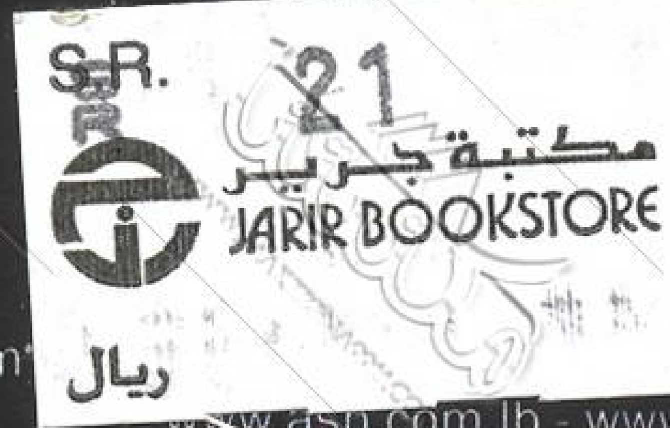
الناشر

ISBN 978-614-01-0532-4





e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com



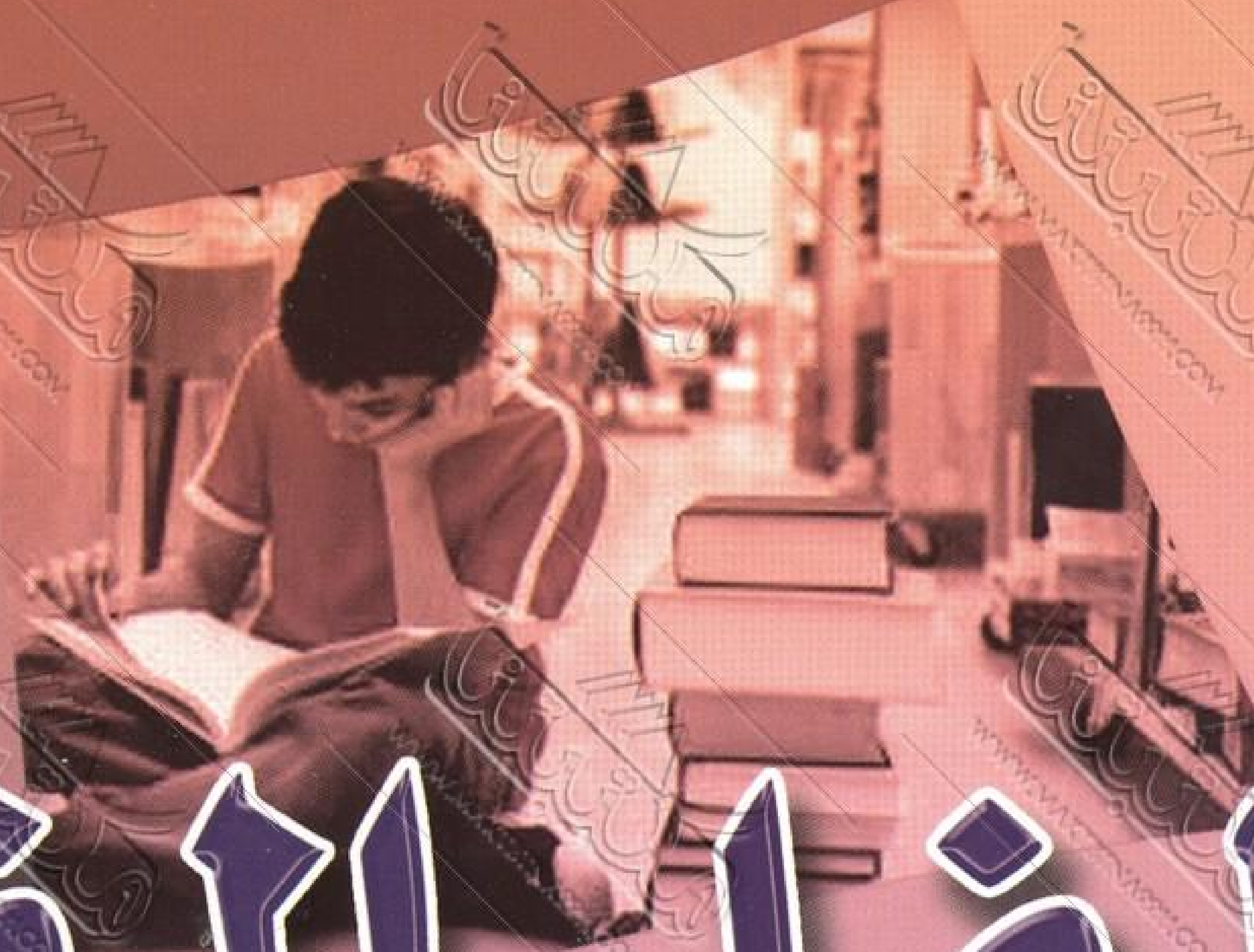
الدار العربية ...
...blishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



سلسلة صناعة الثقافة

الإبداع الفكري

كتابنا القادم



الطفل القارئ

كيف تحبب القراءة للأطفال، مع منهج قرائي مقترح للأطفال والمربين، وقائمة بالكتب المناسبة في المجالات المختلفة



د. طارق محمد السويدان
أ. فيصل عمر باشراحيل

IBRAHIM NASRALLAH - HOWL

إبراهيم نصرالله

عوّ

الجنرال لا ينسى كلابه!

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL



قَمَعْتَ، فأمِنْتَ، فَنِمْتَ..

قال الجنرالُ ذلكَ، وأسلم عينه لهدوء عميق، يبعث الحياةَ في روحه ويجددها، هدوء هائل، بات مستعداً لتفجير كلّ ما حوله من أجله، وحاول أن يسترجع شريط يومه:

كان قد غادر مقرَّه؛ أندفع بسيارته عبر الشوارع باتجاه بيته الجديد الذي يجري بناؤه في ضاحية الغابة، مطمئناً كان، حتى أنه زجرَ حراسه حين همّوا بمرافقته.

قال: لم أفعل ما فعلت حتى الآن، لكي أسيرَ في الشوارعِ محفوظاً بالحرس!

عبرَ الظهيرة، وأبحرَ في سيل العربات تطالعه الوجوه من داخلها مكدودةً، فقدَ الصبرُ فيها هدوءهُ، يتأمّل بعضها، ويتساءل: *كم من أصحاب هذه الوجوه مَرّ عليّ؟*

يبتسم: *لقد ربيتُ هذه المدينةَ على يديّ؛ علَّمتُها يوماً بعد يوم هذه الوداعة، ودفعتُ الكثير من أعصابي وعمري لأعبرها مطمئناً.*

وعندما اقترب من إحدى إشارات المرور، لم يمنعه شيء من فتْح زجاج العربة المضادّ للرصاص.

تهامس رجل وامرأة في العربة المحاذية، وهما يسترقان النظرَ إليه. حدَّق بكل ما فيه من اعتداد بأعينهما، ارتبكا؛ وحيّاه سائق سيارة سرفيس والخوف يقطر من قسماته.

تحرَّكت العرباتُ وهدرتْ أبواقها يستحثُّ بعضها بعضاً، وهمسَ الجنرال لنفسه بصوت مسموع مغموسٍ بالنشوة:

قمعتَ، فأمِنتَ، فنمتَ، أو تجولتَ..

وابتسم.

***

امتدَّت الشوارعُ، هذه الحبال السود التي تصل المدنَ بالمدن، والبيوتَ بالبيوت، واللحظة باللحظة التي تليها، غربة الوعاء عما بداخله، وغربة القمصانِ عن الذين يرتدونها، غربة الخطى عن رمل الطريق، الشريحة السوداء في الليل الأسود الطويل.

عبرتْ نسمةٌ من بين شجرتيّ صنوبر تشقّان أحد الأرصفة، نفذت كسهم من شباك العربة وخرجتْ من الشُّباك المقابل، فانتعش الجنرال، وامتلأ حتى آخرهِ بزهو سحريّ لا يوصف.

الأشجار تظللُ المنطقة بأكملها.. بعض البيوت تأخذ حيزاً في البساط الصنوبريّ الأخضر فوق تل واسع.

الصعود إليها يتطلَّب الكثير من المشقة: انعطاف إلى اليمين في زاوية حادة، ثم تسلّق السّفح الأكثر صعوداً قبل الانعطاف يساراً حيث تنبسط الأرض تحت عجلات العربة الزرقاء. وفجأة يجد نفسه في برج مراقبة، حيث المدينة بكاملها تتعرّى أمامه، غير قادرة حتى على الاختفاء في أزقتها!

***

لم يكن للمنطقةِ أهمية، ولا لغابتها، حتى ذلك اليوم الذي عبرَ فيه الجنرالُ السماء الصافية بطائرةٍ مروحية، فوجئ بوجود غابة، دار دورتين

فوقها، هتف: غابةٌ بهذا الجمال وسط هـذا البلـد، ولا أعـرف بوجودهـا إلّا مصادفة!

سأل: ما اسم المنطقة؟

ارتبك مرافقوه، وغزتْ عاصفةٌ من القلق قسماتِ مساعده الخـاص، إلّا أنها لمعت في ذهنه فجأة، تلك الإشراقة، وهذا لا يحصل كثيراً.

فهتف: "ضاحية الغابة" سيدي.

- اسم جميل. تمتم الجنرال.

لم يعد مساعده الخاص إلى بيته ذلك اليوم، ذهب إلى مقر المدينة، وطلبَ اجتماعاً فورياً لأعضاء لجنة التّسمية، حيـث تقـررَ إطـلاق اسـم "ضـاحية الغابة" على المنطقة الممتدة من حوض 24 إلى حـوض 37، وإزالـة اسـمها القديم من كلّ السجلات. وفي اليوم التـالي انـدفعت الجرافـاتُ العـسكرية لتسوية المكان. تمايلت الأشجارُ تراوغ الأسنان المعدنية للآليات، ولكن دون جدوى، وألقت الشركاتُ معداتها وأخشابها.

***

حين حوَّمَ الجنرالُ ثانيةً في سماء الصنوبر المطحون، ضحكَ، انتشى: من فوق تل كهذا يمكن أن يقيم القدر.

***

لاح البيتُ بقرميده الأحمر القاني، خفقَ قلبُ الجنرال طرباً، تماماً كما كان يحدُثُ في تلك الأيام البعيدة حين يُطبق بدباباته على محاولة انقـلاب أو تمـرّد في ساعةِ صفرها.

خفق قلبه، حتى أفاق على نباح الكلب المربوط في شرفـة الطـابق الأول من المبنى، فاطمأن إلى نجاعة أساليبه في مجال الترويض.

عادةُ الكلب أن ينبح ثلاث مرات كلما رأى عربة الجنرال أو سمعَ هدير محركها يندفع صاعداً التل.

أوقف السيارة، اندفع إليه ذلك الشخص المكلّف دائماً بإحضار طعام الكلب مبتسماً، وانحنى. في يده كيس، يكفي ما فيه لسدِّ جوع الكلب يومين أو ثلاثة أيام قبل أن يموت.

كان الجنرال يحرص على أن يقْلِبَ الكيس بنفسه! يفرحه تناثر الطعام على التراب الأبيض، حيث يتمرّغ الكلب. أما حين يأتي من البيت مباشرة، فإنه يحمل شخصياً ذلك الفتات..

نبح الكلب بحنان مفرط. التصق بالأرض متجاوزاً، حتى، ذلك الحدّ الذي يبهج الجنرال حين يراه بهذا الوضع. نبحَ وتمرَّغ ما إن عبرت رائحةُ بقايا الطعام رأسَه، ثم قام ليؤدي الحركة التالية من احتفائه: استند إلى قائمتيه الخلفيتين فَرِحاً، وأطلق الأماميتين إلى آخر مداهما، فتجاوز بذلك قامة الجنرال القصيرة إلى حد ما. انزعج الجنرال؛ ولكنه كان بحاجة إلى نباحه.

ألقى ما في الكيس من فتات وبقايا عظام. لم يكن ذلك يحدث في الأيام الأولى. في تلك الأيام، وهي ليست بعيدة في الحقيقة، كانت معرفته بالكلب تتوطد، وكان يحضر إليه من الطعام الطازج ما لا يحلم به كلب ضالّ لا يملك أكثر من نباحه، ولكن ذلك تغير تدريجياً.

أدرك الكلب تلك الحقيقة، فلم يملك إلا أن يبسط أساريره ويعلن طربه كلما أمعن في الأكل، أي أكل..

ويطير قلب الجنرال حين يراه أحياناً يقضض عظمة عارية بمنتهى النشوة. فيهمس: *من المهم أن يحس، هذا الحيوان، بأننا نقدّم له شيئاً مقابل نباحه.*

***

هو كلب عادي، عادي تماماً، رآه الجنرال في بيت الصفيح المخصصِ لحارس الورشة، كان واقفاً عندما مرّ الجنرال، ولكنه انبطح بتذلل، وكأنه أدرك أهمية الرجل الذي يمرّ قربَهُ، مرصعاً بنياشينه..

قال للحارس: لِمَ هذا الكلب؟

قال: يحرس المكان!

قال: وأنت؟

ارتبك الحارس.

فالتفتَ الجنرالُ إلى مهندسي البناء، قال: أعطوه نصف أُجرته واصرفوه.

قال الحارس: حرام!

وزجرَ الجنرالُ المهندسين حوله: الكلب سيقوم بالمهمة.

حدّق الجنرال داخل أساسات البيت وهزّ رأسه. فهم المهندسون. قال المهندس المشرف: لم نحفر أساساً بهذا العمق من قبل.

فردّ بغضب: احفروا أكثر.

***

مضى الكلب في طعامه، وصعد الجنرال السلالمَ الداخلية للبيت.

يوم غد تبدأ مرحلة جديدة، وينتقل العمل إلى الداخل.

تجوّلَ في المكان، اطمأنَّ إلى سلامة الهيكل، أنعشه الجو الصافي.

- كم سيطيب الجلوس هنا، خلف نوافذ واسعة كهذه قادرة على التهام الجهات كلها بنظرة واحدة!

***

في الشرفة العليا للمنزل وقف، أطلَّ على البيوت المجاورة؛ متباعدة كانت. كان بمستطاعه أن يرى بوضوح ذلك البيت المتواضع القابع هناك غير بعيد عنه.

وقف الجنرال في الشرفة العلوية، لمح سيارة رمادية تقتربُ، ابتسم ما إن رآها: *ملعونة هي العَظَمَةُ كَم هيَ مغرية، ملعونة!!*

***

عبرت السيارة الرّمادية فناء البيت المجاور، هبط منها رجل بقامته المديدة وسنواته الأربعين، كاملاً مثل قمة جبليّة.

لمح الرجل الأربعيني الجنرالَ، في شرفته العالية، لم يستطع التفكير فيما يجب أن يفعله.

إنه يعرفه، ويقابله على صفحات الجريدة يومياً، هو الآن جزءٌ من يومه.

لم يستطع أن يفعل شيئاً، تظاهرَ أنه لم يره، تذَكَّر ما كتبه ليلةَ أمس، في زاوية "كلمة الصحيفة" التي تحتلّ جزءاً مهماً من النصف الأعلى للصفحةِ الأولى. ولكنه لم يكن قادراً على إلقاء التحيةِ على الجنرال، كان مكسوراً، ويحسّ أن يدَ الجنرال تجوس مؤخرته، اندسَّ في فسحة الباب فَرِحاً بأن امرأته لم تتركه ينتظر طويلاً.. وتوارى.

***

كانت تلك الأيام غير هذه..

قالَ له "الأنيق" في غرفة التحقيق: ماذا تريد، جاهاً على خازوق؟! لا يغرنَّكَ هذا الصدى، وهو صدى فعلاً، هذا الذي تُحْدِثُهُ كلُّ قصة من قصصكَ وأنت تلقيها لهذه الصحفِ الصغيرةِ التافهةِ أو تلك لكي تنشرها، أنت تعرف أننا قادرون على إغلاق هذه الصحف، وإغلاق فمكَ إلى الأبد. ثم إن هناك مسألة أخرى: لقد قرأتُ هذه القصص جيداً، قرأتها بتجرُّد تام، وبحثتُ عن موهبة ما بين سطورها فلم أجد شيئاً، قصص فارغة، مجرد

خراريف، لا تضيف شيئاً لشخصكَ ولا للعالم حولكَ! ما الذي يمكن أن تكتبه ويشكِّل إضافة وكل هذا السيل من العمالقة لا يزال يهدر: "دوستويفسكي"، "نيوتن"، أو "أديسون". قل لي، لو أتيح لك أن تواجه نفسك بصدق فكيف تقيّم أعمالك؟

- أولاً نيوتن وأديسون ليسا أديبين.

- صحيح؟! أنت تفهم إذن!

- ثم إننا لسنا في جلسة حوار أدبي لأُدلي برأيي، ولكن الناس هم من يقيمون هذه القصص وأعرف أنهم يحبونها، كما انني لا أنشرها فقط في هذه الصحف التافهة! بل أنشرها في مجلات وصحف عربية محترمة ومعروفة، وفي أي عاصمة أُريد.

كان الأنيق يعرف ذلك جيداً، وهذا جزءٌ أساس في استدعائه له، لقد قال له الجنرال أربع كلمات فقط منذ يومين: "أحمد الصافي، بِدْنا إياه".

قال المحقق وكأنه يوجِّه إبرة ليفقأ البالون الذي نفخه الكاتب: أعرف ذلك، ولكنني أحبّ أن أقول لك إن تلك الصحف لا تقل تفاهةً! إنها مجرد جعجعات فارغة، مموّلة من جهات تعرفها وأعرفها؛ ولا شك أنك تعرف أننا نستطيع شراء الصَّحيفة أو المجلة أو دار النشر التي نريد؛ كلّ ما علينا أن ندفع أكثر، وكل ما له سعر فهو رخيص! أليس كذلك؟ ثم، ثم ما الذي يمكن أن تحققه قصصك في عالم عربي لا يقرأ؟ أنا أعرف أن أفضل زملائك الكُتاب الكبار - ومطَّ كلمة "الكبـــار" حتى سالت حروفها لزجة على عنقه- مثل نجيب محفوظ، وابتسم بسخرية، لا يطبعون أكثر من ألفين إلى ثلاثة آلاف نسخة من كتبهم لعالم عربي عدد سكانه أكثر من 150 مليوناً، إنكم تصرخون في بئر مهجورة.

- دعونا إذن نمارس هذا العبث، فنحن نحبه.

- إن مهمّتي هنا أن أُعيدك إلى وعيك، أن أرشدك، أُنبّهك، أن أفتح عينيكَ على الحقائق، ولا أظن أنني مضطر إلى فعل ذلك باعتقالك مثلاً؛ بسجنك وتعذيبك؛ فنحن أيضاً لا نريد أن نجعل من أيّ منكم بطلاً، ولأنك لن تكون بطلاً في يوم ما، وهذا وعد قاطع مني، فإنني أنصحكَ أن تكون إنساناً محترماً على الأقل.

تذكر أحمد الصافي ما كتبه ناقدٌ كبير حول قصّته الأخيرة المنشورة في إحدى المجلات العربية.. وتأكيده على المستوى الرفيع الذي تتمتّع به هذه القصة في الأدب العربي، تذكّر كلمات قالتها له إحدى طالبات الجامعة التي صادفته في الطريق العام وسط العاصمة، فأقبلت راكضةً تُسابقُ خطواتها بعد أن كانت تجاوزته وأقبلتْ مشرعةً بهجتَها على عرضِ الشارع: الأستاذ أحمد؟!!

ابتسم. قال: بعينه!

قالت: قصتك الأخيرة "بتجنِّن" يا أُستاذ "بتجنِّن".

وعلى الرغم من أنه لم يرضَ عن تعبيرها النقديِّ المتمثّل في كلمة "بتجنن" إلا أنه أحسّ أنه كاتب يقرؤه الناس ويعجبون به.

ضحك المحقق: ابتعدتَ، ليس هذا بالوقت الملائم لكتابةِ القصص. لا، بل ربما يكون كذلك، هل أُحضر لك ورقةً وقلماً؟!

- أنت تقول إننا نصرخ في بئر مهجورة، وأنا أُعيد ما قلته، دعونا نصرخ كما نريد. أنت تعرف، ليس لديكم أي شيء ضدي، لذا لا يوجد هناكَ أي مبرر لإحضاري إلى هنا وزجّي في هذا الجوِّ العدوانيّ عشرةَ أيام متتالية.

- عدواني؟! كيف؟ هل أسأتُ إليك؟ هل ضربتكَ مثلاً؟ وأنت تعرف أننا قادرون على إيذائك. لكن، بالمناسبة كيف أحوالُ العمل لديك، إنني أُتابع مقالاتك اليومية، تستطيع أن تعتبرني متخصِّصاً فيك!

- ...

- أوضاع العمل صعبة في كلِّ مكان، وعليك أن تحافظ على وظيفتكَ، أليسَ كذلك، هذا يتطلَّب أيضاً بعض الجهد. بل الجهد كلّه.

- إنني أكتبُ يومياً.

- هذا لا يكفي.

- هل يكفيكَ الراتب مثلاً، لماذا لا تذهب إلى الخليج، فرصتُكَ هناك عظيمة!

- يكفيني راتبي، ولا أُحب العمل في مكان آخر.

- أنا مثلاً راتبي يكفيني ويزيد! أنْ يكفيكَ راتبك شيء وأن تعيش كما يجب شيء أخر، فأنتَ ككاتب محترم! معروف عربياً! يلزمكَ أن تكون في بحبوحة أليس كذلك؟!

- كل الناس يحبّون العيش في بحبوحة، وأنا أكتب من أجل ذلك.

- أي أنك تفتقد ما تكتب من أجله، ورغم ذلك لا تعمل من أجل تحقيقه!! لا تستطيع أن تخدعني، إننا نعرف بيتك فهو أشبه بحظيرة.

***

كان الجنرال واقفاً في الشرفة العليا، حين اندسَّ أحمد الصافي داخل بيته ذي الواجهات الأنيقة، والنوافذ المسلَّحة بقضبان الحديد والزجاج الأسود،

ابتسم الجنرال: *يغُيِّر الأحوال، أو أُغيِّر الأحوال! من كان يصدِّق أنني وأحمد الصافي سنسكن في الشارع نفسه؟!*

***

نبحَ الكلب سروراً، فعرف الجنرالُ أنه انتهى من تناول وجبته.

منذ مدة يراقبُ كلبَهُ بعين خبيرةٍ: *هذا الكلب بعد أن يوشك أن يموت مثلاً، وقبل دقائقَ من ذلك، أُحضر له طعامه فيهبُّ فَرِحاً بأي شيء قد يُقدّمُ إليه! ما يحتاجه، هكذا تقولُ خبرتي، ما يساعده على إطلاق نباحه إذا أحسَّ*

بحركة غريبة. حماية المنزل لا تتطلّب وجود حارس مسلّح حتى أسنانه دائما، بحاجة إلى نباح كلب فقط!

خطر ببال الجنرال شيءٌ يتعلَّقُ به، وبدوْرهِ، ارتعد..

وبدأ يهبط درجات السُّلّم العارية.

بعذوبتها التي لم تزل تملأ ملامحها، وتتركّز هناك على جانبي شفتيها، في غمازتين ساحرتين، اندفعتْ وطوّقتْ عنقَهُ: تأخرتَ اليوم، حبيبي!

ولكنها ما إن رأت وجهَهُ حتى أدركتْ أن شيئاً مخيفاً قد حدث. كان فَزِعاً يتصببُ العرق من جبينه؛ كان يودُّ أن يهرب إليها، ولكنه لم يستطع. داهمه حسّ ما أنها ساهمتْ في اللعبة. ولذا وجد نفسه يرتمي في حضن أول كرسيّ يصادفه، ويتقوقع فيه.

- ما لك حبيبي، مريض؟!

لم يُجب.

كيف يستطيع أن يفسِّر لها؟ لا يستطيع، إذن فليصمتْ. أما هي فوجدتْ أن بإمكانها إخباره بشيء يُفرحه، وتعرف دائماً أنه كان يُفرحه، بذلك تُبدّد هذه الغمامةَ السوداء!

- حبيبي مقالك اليوم كان رائعاً، أصداؤه واسعة، خابرتني أكثر من صديقة، وهنَّ يهنئنكَ فعلاً، هكذا يجب أن تكون الكتابةُ وإلّا فلا!

ولكنها لم تعلم أنها أشعلت أصابع الديناميت! سيطر على انهياره، لملمَ ذاته المبعثرة ليقف ويبتعد عنها وعن كلماتها.

- أرجوكِ يكفي، ومرّ من بين ذراعيها اللذين اندفعا لاحتضانه مبتعداً.

تذكّر مقالَهُ الآخرَ غيرَ المُوَقَّع الذي يتصدَّرُ الصفحة الأُولى: *لماذا تتجمّع المصائب كلها في يوم واحد؟!*

لو كان اللقاء حدثَ في يوم غير يوم السبت، الـذي يكتـب فيـه مقالتـه السياسية لتغيّر كل شيء: *ولكن كيف يتغيّر كل شيء؟ يتغـير اليـوم! وغـداً ماذا أقول فيه؟ لن تمضي فترة طويلة قبل أن يصبح الأسبوع كلّه أيام سبت!*

صمتت زوجته قليلا، لكنها عادت أكثر اندفاعا لإخباره بـشيء جديـد حول كتابته: حبيبي ما الذي يغضبك، هل قلتُ مـا يُغـضِبُ، لقـد فرِحـتُ بآراء زميلاتي! بالمناسبة كل يوم أكتشف أن لكَ معجبات أكثر ممـا تتـصوّر، معجبات!! لا تنسى تاء التأنيث يا لئيم!

كان قد وصل إلى زاوية التقاء المطبخ بالصالون..

– لقد سألتْني إحداهنَّ وهي من قرائك الذين يتابعون إنتاجك بـشغف منذ سنوات طويلة، أكثر منَ عشر سنوات، تصوّر؟! سألتني: متى سنقرأ له قصصاً جديدة؟! أخبريه على لسان قارئة أحبّت كلَّ ما كَتَـبَ، أننـا نفتقـده اليوم مبدعاً، صحيح أننا نحب مقالاته، ولكن، أين قصصه؟!

عند ذلك عصرَ الزاويةَ بظهره، وانكمش كأنه يحاول أن يختفي فيها.

– أنت متضايقٌ؟! أعرف ذلك، ولكنّها قالـت لي بـصراحة: إن الـزواج قد يكون السبب! وهذه مسألة متعلّقة بي، يجب أن تكتب يا أحمد، حتـى لـو كان ذلك من أجلي!

***

أكان عليها أن تنكـأ هـذا الجـرح، في هـذا اليـوم، يـوم الـسبت أيـضاً، وتحرّكتْ يدُ الجنرال في مؤخرته. إنه يدرك أنه مخصي الآن! منذ زمـن! ولـذا لن يستطيع الكتابة، لن يستطيع الاقتراب من أي عمل إبداعي جديد.

صرخ: كُفّي عن أسئلتك هذه، وغيّري الموضوع!

هذا الكلام قالته منذ زمن. ومنذ زمن نظر إلى وجهها: ولكنـك تعـرفين أن ما أكتبه فيه خدمة للناس أيضاً. وأنا لم أتخلَّ عن قرائـي، كـل مـا حـدث

أنني أُخاطبهم في صيغ أخرى، نوع آخر من الكتابة، له قطاع عريضٌ من القراء، أكبر، حتى، من قراء القصص!

نظرَ إلى المرآة فلاحَ وجهه هناك في أقصى العتمة، مثل رجل مصاب بالحُمّى، همس لنفسه يطمئنها: *نعم، لن أُواصل اللعب هكذا، سأكتبُ، سأكتب قريباً، وسأحاول تضييق الحيِّز الزمني الذي تبتلعه الصحافة من وقتي، سأحاول.*

ولكنه كان يدرك أنه خُصيَ منذ زمن طويل، وأن كل محاولاته لكتابة قصة واحدة بالمستوى الذي يريد ذهبت أدراج الرياح. ولكن، كيف انكسر هكذا، دون أن يتلقى ضربة واحدة مباشرة؟ وأيّ دوْرة تلك التي دارها الزمن في السنوات الماضية ليفيق بعدها وإذ به يسكن في شارع الجنرال. وإنهما جاران، "الحيط بالحيط"؟!

***

قال له المحقق في تلك الأيام: أنا لا أُريد منك الكثير، ولكنني أحبّ أن أعرف بصراحة هل تنتمي فعلاً لهذا البلد. بكل ما فيه أم لا؟!

قال: أنا أنتمي لهذا البلد.

سأله وهو يطحن الكلمات بين أسنانه: بكل ما فيه؟!!

– لا أستطيع أن أقول ذلك.

– لماذا؟

– لأنك أنت كمحقق لا تنتمي لكل ما فيه.

– ما الذي تقوله؟!!

– أقول إنني أيضاً من "هذا البلد" وهناك كثيرون مثلي، فهل تنتمي إلينا؟!

انتفخت أوداج المحقق. تلك كانت المرة الأولى التي يفقدُ فيها أعصابه: أنتم مجرد حشرات، فكيف ينتمي الإنسان إلى حشرة؟!

- ولماذا يهمّكَ أن تنتمي هذه الحشرة إليك؟! أنتَ قلت إننا نصرخُ في بئر مهجورة، ونحن مجرد حشرات في نظرك إذن دعونا وشأننا!

- أنت إذن مع خراب "هذا البلد"!

- بل مع عمّاره.

- ولكنك تجرؤ على القول إنك تؤمن بشيء ولا تؤمن بشيء آخر! أي تكتب لجزء من الناس، وليس لكل الناس. أين موقعنا مثلاً في كتابتك؟! لا، لا يوجد لنا موقع!

امتدت يد المحقق. ضغطتْ مفتاح الجرس الكهربائي، اندفع أحد المراسلين: خذه!

فَزِع أحمد! وقبل أن يبلغ باب الغرفة، تبِعَهُ الصوت: نلتقي غداً في الموعد نفسه!!

تنفّس!

قال المحقق: *يجب أن يسقط، يجب أن يسقطوا كلّهم*! ثم أدرك أن هذه العبارة تمسّه، فهو واحد من أولئك الذين استبدلوا جلودهم وانتقلوا من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين بعد زياراتهم الكثيرة لهذه البناية بالذات! أرتجف غيظاً: *يجب أن يعرف مصلحته!!*

في الممر الطويل الواصل بين الظلمة والضوء، كان أحمد الصافي يسير خلف المراسل، وقد تعكّرتْ كل بقايا الأمل بأن تنتهي هذه المسرحية.

- *ولكن، إنها حرب، ويجب أن أصمد، يجب أن أصمد.*

وتذكّر سليم البحري أحد أبطال قصصه التي نشرها في بداياته وتتناول قصة سجنه.

سأله المحقق في الجلسة الأولى عنها، عن زمانها، ومكانها، فأجاب: أحداثها تدور في أحد السجون الإسرائيلية!

فقال المحقق يومها: إذا هيك مش مشكلة!

***

داعبَ الجنرال فروة رأس الكلب، فامتلأ الكلب طَرَباً. استقلّ السيارة، دوّى صوت محرِّكها وهدير عجلاتها في البيت المجاور. خطا أحمد الصافي باتجاه النافذة. حاذت العربة الزرقاء سورَ البيت، ابتعدَ أحمد عن النافذة فزِعاً، ناسياً أن الجنرال غير قادر على رؤيته من خلال الزجاج الأسود، وأعطى ظهره للحائط البارد.

جاء صوت "فِتْنَة": جيد أن يكون جارنا "الكبير" هو الجنرال أليس كذلك؟

- ....!!

***

اندسّ في فراشه بثيابه، وخزته البُقع السود المترامية على جلده! نهض. بحثت فِتْنَةُ عنه، وجدته خلف طاولته يكتب! ابتعدتْ بعد أن تذكّرتْ أنها أوشكتْ أن تنسى تلك العادة التي تعلَّمتها منذ بدء زواجهما: أن تتركه لوحدته ولنفسه كلما أراد أن يخلو ليكتب أو يعتزل.

لم يعد يسمع خطواتِها في الممرّ أو حركتَها في المطبخ.

***

هكذا مرّتْ، أثيريّةً، ففوجئ بها في ذلك اليوم البعيد! راقبها طويلاً عن بعد في قاعة نادي الخريجين الجامعيين، وبنى أكثر من صداقة باردة ليضمن غطاءً لتردّده على النادي! كانت أُمسية قدم فيها قراءات من قصصه؛ وكانت ترتدي بنطال جينز أبيض وسترة بيضاء، تحتها بلوزة حمراء مشدودة. طالعتْه كمهرة. فوجئ بحضورها الطاغي، حاول أن يُعدّل وضع

كرسيّه خلف الطاولة المخصصة له ولمدير النادي الذي سيقدّمه للجمهـور، حتى يستطيع رؤيتها بوضوح.

بدأت الأمسية، وبدأ يقرأ، اكتشفَ أنه يقرأ لها، اكتشف ذلـك متـأخراً. أحسَّتْ هي بذلك، عدّلتْ كرسيّها مبتعدة فأصدرَ صريراً فاضحاً في لحظـة توتّرتْ فيها أحـداث القـصة، ولكنّهـا عـادتْ وأطلَّـتْ برأسـها مـن فـوق الأكتاف المتراصّة، وبدأتْ تحدق إليه، وعاد ليقرأ لها.

قال: سأسميها فِتْنَة.

انتهت الأمسية، بحثَ عنها ولكنها كانت قد اختفت تماماً.

***

لم يعدْ يسمع خطواتها في الممر، ولم تجرؤ أن تسأله إن كان سـيأكل أم لا؟ هكذا أوصاها منذ البداية، والتزمتْ، ثم لم تعد هنـاك حاجـةٌ لهـذا المطلـب، فهو لم يعد يكتب إلّا في الصحيفة!

دوّى صوت الجرس في أرجاء البيت، لم يتحـرّك مـن مكانـه، لقـد عـاد "فارس" من المدرسة.

***

في الخارج نبحَ الكلب، ولكـن أحمـد الـصافي كـان مطمئنـاً أن الكلـب سيصمتُ بعد قليل، فقد شبعَ، ولن يبدأ وصلةَ النباح الثانية قبل الفجر.

ونام.

اتسعت الشوارعُ وتغيّرتْ. تغيّرت المدينة والناس. من يمرّ بها اليوم، لـن يـستطيع اخـتراق طبقـات الإسـفلت ليتـذكَّر أو يـرى آثـار خطواتـه؛ إسفلتٌ، إسفلتٌ يتراكم ويتراكم؛ وليست مصادفة أن الـشوارع أصـبحت أكثر ارتفاعاً من الأرصفة.

كل هذا السواد يندفع بساطاً لاهباً ويجلل الامتدادات.

تغيّرت المدينةُ، وأصبح الشارع أوتوستراداً، أصـبح فـضفاضاً إلى الحـدِّ الذي لم يعد للناس حضور فيه؛ ضاقت الناسُ واتّسعت الـشوارعُ، وظلَّـت العماراتُ ترتفع في كل مكان..

بعد المساء مباشرة، ستبحثُ عن طيف؛ لن تجد. ستتّسع عنـدها المدينـة وتتسع أكثر، ويختفي المدى في بحر حلكتها، وفي الصباح ستنهض متثاقلـةً، وتزحف باتجاه ما تبقّى من سهول خضراء حولها، وتبتلعهـا، لـيعمّ الخـراب والإسمنتي العقيم!

كل الأشياء تأتي مُعلّبةً: المصانع، والعربات، التحيّة والابتـسامة، الهـواء مُعلَّب، والبشر يُطلّون من عُلب مجهزةٍ بالمواد الحافظـة، ويعيـشون في عُلـب حافظة ويتناسلون!

حتى الشجر، يأتي مُعلَّباً! فعندما تقرّر عقد اجـتماع طـارئ للجنـرالات لتدارس الأوضاع الخطيرة التي تعصف بالمنطقة؛ قامت بلدية المدينة بالعمل ليل نهار، وقد نُقل الشجرُ بالطائرات من بلاد لا يعـرف الـشيطان اسـمها؛ وفجأةً، امتلأتْ الشوارع بأشجار عالية، غريبة عن التراب وعن الهواء.

كل ذلك ليتمتّع الجنرالات بالمشهد الجميل في ذهابهم إلى قصر المؤتمرات وعودتهم منه. ولكنّهم في اللحظةِ الأخيرة قرروا الوصول إلى قصر المؤتمرات مستخدمين الطائرات العمودية. فأُهمِلت الأشجار بحيث لم تُتَح للأغنام الفرصة الكافية لقضمها ذابلةً، بسبب تمديد اجتماعات المؤتمر.

***

في هذا الليل الطويل نفسه، الذي يبسط يده على المدينة، كان الجنرال ساهراً في شرفة بيته القريب من الملعب الرئيس. الهتافات كانت تتصاعد. قدَّرَ أن المباراة حامية، فهي مباراة تحدّد المؤهَّلَ لخوض معركة البطولة؛ وسرّهُ أن كلمة البطولة كلمة طيبة الآن، لا يُسمح بترديدها إلا في الملاعب!

حين اشتكى إليه بعضهم بأن هناك متاعب تحدثُ في المباريات قال: فلتكن المباريات مستمرّة طوال العام! ولذلك لم يعد المتفرِّج يخرج من باب الملعب حتى يعود من جديد. واختصاراً للجهد، ولضمان الحصول على تذاكر في الوقت المناسب، قام بعض مشجّعي الفرق الرياضية بنصب خيامهم في قطعة الأرض الضيقة الموجودة شرقيّ الملعب، وقاموا بإحضار أبنائهم وزوجاتهم.

الوصول إلى خيار الخيمة في الحقيقة، لم يكن ليلجأ المشجعون إليه لو أنهم وجدوا شققاً للإيجار في المنطقة المحيطة بالملعب، تلك المنطقة التي انتعشتْ فجأة، وأُقيمت فيها الفنادق والمطاعم ومحلات السوبر ماركت.

كانت اللحظات تتقدّم وتوغل في المفاجأة، والليل يزداد ليليَّةً؛ وبدأ الجنرال لعبة جديدة: لقد قرر أن يُتابع المباراة من خلال الأصوات القادمة من الملعب! ركَّز تفكيره تماماً. أصبح هناك. قدَّرَ: الكرّة الآن في منتصف الملعب، الوصول إلى حارس مرمى الفريق المدافع ميسور. نعم المجال مفتوح الآن، فالجماهير تستحثُّ الهجوم لاستغلال الفرصة. يتقدّم الهجوم، إلّا أن قوة حضور الحارس تحول دون وصول الكرة إلى الشِّباك، أضف إلى

ذلك أن الرّهبة وعدم الثقة متعمّقة في داخل أفراد الفريق المهاجِم حتى الوريد، ولولا ذلك لكانت المباراة مهرجان أهداف لصالحه!

هناك الآن ضربةٌ ركنيةٌ بلا شك: نعم ثمةَ صمتٌ أعقبَته صرخةٌ مدوِّيةٌ لم تأخذ مداها، لم تصبح هدفاً!

الحارس يعيد الكرةَ ثانية، ليعقبَ ذلك مدٌّ للفريق المضغوط. صوتُ الجمهور يأتي من الناحية القصبيّة للملعب، التركيز مُنصبٌّ على ميسرة الفريق الأول نظراً لانشغال قلب الهجوم في الواجب الهجوميّ فقط! لذا عبر لاعبو الفريق الثاني خطوط الفريق الأول؛ فالحماس يزداد، والوضع بات مفرحاً ومشدوداً في الوقت نفسه؛ إلا أن تألّق حارس المرمى يصدهم على أعقابهم..

تنطفئ موجةٌ الصراخ. يعقبها صمتٌ. ضربة ركنية أخرى بلا شك. الكرةٌ تجتاز الأقدام كقذيفة مراوغة، ليكون مسارها المضمار، مع أن الأصح لها بين الثلاث خشبات!!

وينطفئ الجمهور ثانية..

***

ساد صمتٌ، طال، فأدرك الجنرال أن الشوط الأول انتهى. دبَّ الحماس فيه. وقف وبدأ يمارس تمرينات رياضية في الشّرفة. دخل إلى الصالون، أستغلَّ امتداده والفراغ الواسع بين أثاثه، ركض. عاد إلى الشرفة، واصل ركضه الموضعي: قال في نفسه: *لم أزل شاباً، نعم، ولا أثر للسنوات، سوى هذه الشعرات البيض. كل شيء تمام، تذكّر مولوده الأخير، فازداد نشاطاً.*

في الداخل، كانت زوجته وأبناؤه يتابعون شريطَ فيديو، وتصله ضحكاتهم المغموسة بأجواء الصراخ الشرس بين "توم وجيري".

قال: *أعجبُ كيف يتعاطف الأطفال والناس مع فأر! الفأر حيوان نتن، مقرف، لماذا لا يتعاطفون مع القط، فهو القوة في النهاية؟ وهو الأجمل*

والأكثر فائدة، ما الذي يمكن أن تفيده من فأر؟ لا شيء. هل لأنه خبيث وذكي، ولكن من قالَ إن القط غير ذكي؟!

وقرر أن يُوصي مساعده الخاص صباحاً باستدعاء مدير عام محطات الإنتاج التلفزيوني، وأن يكلفه بتنفيذ مسلسل، تكون الغلبة فيه للقط دائماً، ولا بأس أن يكون الفأر لعوباً بعض الشيء حتى تستمر اللعبة!

قطعَ أفكاره الهتافُ القادم من الملعب ثانيةً. عاد إلى مقعده، حاول أن يُركّز أكثر هذه المرة، رغم فرحه بنتائج محاولته في الشوط الأول.

عمّ الصمت. تراجعت الأصوات القادمة من كل الاتجاهات، وبقيَ صوت واحد أخذ يتغلغل فيه أكثر وأكثر.

ثمة هجومٌ مباغت، للفريق الثاني، فجمهوره في الطرف الآخر من الملعب يتصايح. الصرخاتُ تتصاعد أكثر فأكثر. لاعبُ الدّفاع يسوق الكرةَ مخترقاً الهجوم ومتجاوزاً دوْرهُ.. يرفع الكرةَ، وبضربة رأس متقنة يبددُ هجومَ الفريق الثاني ويحرز الهدف في الدّقيقة الأولى من الشوط الثاني.

يبتهج الجنرال: *ضربة مُحْكَمة، سريعة، خاطفة، لم يعرف الفريق الأول من أين أتته!*

***

قُرِعَ جرسُ الباب. لحظات وكان مساعده الخاص واقفاً أمامه. قدَّم له مغلّفاً، فضَّ الأوراق، قرأ، ابتسم. قال المساعد: سيدي تمت عملياتُ الاعتقال بهدوء. كل الناس في الملعب! هكذا خُيِّلَ إلينا، فكرتكَ كانت مبدعة: استغلال وقت المباراة!

قلَبَ الصفحة الأولى وبدأ بقراءة الصفحة الثانية: *غارات إسرائيلية على مخيم عين الحلوة. مقتل وإصابة خمسين من سكانه وتدمير ثمانية عشر منزلاً..*

ارتفع الهتاف في الملعب ثانية.

قال الجنرال: إصابة أُخرى جيدة.

- عفواً سيدي لم أفهم.

- بل إصابتين في مباراة واحدة.

- ...!!!

- كم أُحب هذه المباريات، كم أُقدِّس هذا الهتاف! أتصدِّق أنني أنا مَن هزَّ الشِّباك قبل لحظة! أنا الذي أدخل الهدف في مرمى الفريقين! هدف واحدٌ يهزّ شباك الفريقين، هذه معجزتي! أليس كذلك؟ أُحب هذه المباريات. أحبها!

انسحبَ المساعد نصفَ مدركٍ لما يقصده الجنرال. استدار الجنرال إلى الشرفة ليراقب المشهد، كانت الأسهم النارية تغطّي سماء الملعب. غمرته البهجة.

عاد ثانية إلى منتصف الملعب حاملاً كلَّ حواسّه. بدأ الآن فاصلٌ هجوميٌّ صاخب للفريق الأول، وسط تفكك ليس له أصل أو فصل في خط الدفاع المُنتَشي بهدفه، وساهم في ذلك تباعد نقاط الاتصال ما بين أفراد منطقة المناورة!

توالتْ الفرص ضعيفة للفريقين حتى نهاية المباراة..

ما تبقى من الوقت كان أبيض بمعنى الكلمة، وخيال الرّكلات الترجيحية كان يمرّ في أذهان أفراد الفريق الأول كوسيلة أخيرة لهم للصعود إلى البطولة..

بدأ تركيز الجنرال يتلاشى تدريجياً، بفعل رتابة الجزء الأخير من المباراة، حتى أنه غادرَ كرسيّه الهزّاز، وأدار ظهره، وخطا خطوته الأولى باتجاه الصالون، حين دوّى الهتاف فجأة، فأدركَ أن هدفاً ملعوباً فاته، في الدقيقة الأخيرة، قال: *لم تزل بي نقطة ضعف، فمن الممكن أن تُغافلني كرةٌ في الدقيقة المطمئنة الأخيرة وتهزّ الشّباك!*

في الليل انتشرت الغابةُ أكثر، وتقدَّمتْ بظلالها فاجتاحتْ التلال الجرداء حولها. سيدةً كانت، أطلَّتْ فاحتلَّتْ التفاصيل، ولم يبق داخل المشهد سواها. أضواء خجولةٌ تحاول فضَّ سرِّها، تسطعُ على طرفيّ الشارع - محاولة دائمة لاجتياز العتمة المتربصة بين أغصانها-.

منذ أن حضر الجنرال للمرة الأولى، أدركَ الجميع، جميع من هناك أن العصر الذهبيّ للغابة وما يحيطها قد بدأ؛ ولكن ذلك لم يدم طويلاً، تدافعتْ العربات العسكرية فوسَّعتْ الطريق واقتلعتْ كل آثار الطريق القديم الذي لم يكن أكثر من عمود فقري مُعلَّق بسلسلةٍ من الحفر المتتالية. كان هذا عيب المنطقة الوحيد، إلّا أنه العيب الذي لا يستطيع أيّ كان التسرُّب منه ليكون واحداً من جيران الغابة.

للغابة الآن حُرْمَتُها المعزّزة بارتفاع سعر الأراضي حولها، وتصنيفها السّويسري. ثم من يجرؤ أن يدخلها حاملاً على كتفيه بيتَ صفيحٍ أو بيتاً من تلك التي يَقْبَلُ بها الناس، وحتى لا تُذَمَّ يقولون: إنها مستورة!!

انقلبت المنطقةُ، وفجأة نهضتْ أعمدة الكهرباء بأضوائها الصفراء. حالة طوارئ فذة، ما كان يمكن أن تتمّ بهذا الشكل المتقن السريع، حتى، في ساحة معركة.

أدرك سكان المنطقة أن شخصيةً مهمة ستجاورهم، وابتهجوا كلهم؛ ولكن أحمد الصافي تأمل المشهد، مشهد حياته كلّها في سحابة الغبار الطويلة التي خلّفتها عجلاتُ سيارة الجنرال الزرقاء في صعودها الواثق لانحناءات

الطريق وجبليَّته، ونزولها الأكثر ثقة، بعد أن حملت الريحُ سحابة الغبار الثانية وعفرَّتْ بها وجوه المنازل وساكنيها.

وإلى زمن طويل سيظلُّ المشهد يتكرّر. حتى "فتنة" التي ابتهجتْ كثيراً برؤية عربة الجنرال وشخصه بأُم عينها وقريباً منها إلى ذلك الحدّ، قالت: إذا استمرَّ تدافع الغبار داخل بيتنا بهذا الشكل فإنني سأُجنّ! وكانت تمسح الطاولات وتنفض أثاث المنزل بعصبية؛ ولكن أحمد الصافي لم يجد طريقة ينفض بها ذلك الغبار الذي يتسلل إلى أحشائه ويتراكم على روحه! وفي محاولة لتجاوز الحالة قال: *هذا ليس بجديد، والغبار يتراكَم منذ زمن!*

ولكنه أنفجر فجأةً في وجه زوجته حين رآها تبالغ في نفض الغبار، فانسحبتْ فتنةُ بعيداً.

.. ولم يستمر ذلك طويلاً، إذ بدأت المنطقةُ تأخذ ملامحها باكتمال الشارع وزينته، والجُزُر المنتشرة في وسطه مكلّلة بزهور الأقحوان البيضاء.

وفي غمرة ابتهاجها، بعد معاناة طويلة، أسرّتْ فتنة لزوجها في عتمة السرير، في تلك اللحظة التي نبح فيها الكلب: لو أن حضرته سكنَ هنا من زمان!!

***

ها هو الصمتُ يعود، لا يبدده شيء سوى النباح. المنطقة عامرة بسكانها كما يقولون، ولكنها موحشة دائماً. أشرع أحمد الصافي الباب، نزل الدرجات القليلة الموصلة إلى المرآب، فتح باب عربته الرمادية. كان لانعكاس ضوء القمر المتسلل من بين غيمتين شحوبه في لون السيارة، وكان لريح كانون الثاني ما يكفي من الحضور لإطلاق أنياب العزلة في القلب، فشمس النهار انقلبتْ إلى نقيضها.

ولكن لماذا يتغير كل شيء هكذا فجأة؟ إن الجنرال شخص مألوف لديه بعد كل هذه السنوات: سكن كلماتِه وحبرَه وأوراقَه البيضاء قبل أن يسكن البيت المجاور له!

- بل إنه ساكن في داخلي منذ زمن! كيف أفزع الآن إذ يسكن قربي؟ لعلني سأندم!

- عمَّ تتحدّث؟ الندم يمكن أن تشعر به وأنت حي، لكنك الآن ميت!!

- لا أحد يرى ذلك. لا أحد يعرف بذلك، كلّ كتابةٍ مجّدتُ فيها الجنرال لم يعرف أحد أنني كتبتها!

- لن أقول لك إن رئيس التحرير يعرف، والجنرال منذ البداية يعرف.

- هذا لا يهم، مجرد شخصين فقط!

- ولكنك تدرك أن رئيس التحرير مارس دوْر القوّاد بصورةٍ رائعة! والجنرال، ألمْ تحس أن يده تجوب مؤخرتك؟ ثم ألا تعرف أنت؟!

- أنا؟!!

سحبته برودة الريح من عنقه. لم ينبح الكلب.

لقد بات أحمد الصافي مألوفاً بالنسبة له.

***

كم مرّ من وقت قبل أن يألفه الكلب، قبل أن يتحوَّل النباح إلى نظرةِ حنان أو تفاهم متبادل وإحساس مشترك بطبيعة الحال؟! وعلى الرغم من أن الكلب لم يكن يوماً طليقاً، وظلّ دائماً مشدوداً إلى عمودِ الإسمنت الدائري الصّاعد من شرفة الطابق الأرضي، إلّا أن أحمد الصافي لم يكن يطمئن إلى براءة نباحه المفروضة بمتانة الحبْل! هذا الحبل الذي لا يتيح للكلب أكثر من فرصة النباح، والذي يحدد المجال الحيوي لأنيابه.

ألقى الكلب قائمتيه الأماميتين فوق زنّار الشرفة الحجريّ وتطلّع باتجاهه، لمعت عيناه في هيكل من الظلّ.

قال: *ما الذي يراه الكلب مني الآن أكثر من عينين خارجتين من هيكل ظلٍّ؟ لو كان الجنرال في الشرفة الآن، ما الذي سيراه ؟! وفكّر، من يرى في الظلمة أكثر الكلب أم أنا؟!*

***

في البداية كان الكلب لا يكفّ عن النباح، فلم يعد أحمد الصافي يستطيع النوم، وفكر غيرَ مرة أن يتسلل إليه ويفكّ الطوق عن عنقه، ولكنه كان يخشى أن يندفع باتجاهه ويمزّقه. في البداية كان يُطلق نباحاً غريباً ممتلئاً بالفجيعة والأسى، ولولا إدراك أحمد أن الكلب واحد من الحيوانات التي تفقدُ وحشيتَها إذا ما توافر لها ما يلزمها في البيوت، لقال: إن الكلب يفتقد حريته.

ولكن الكلب ليس نَمِراً.

ولكن هل يمكن أن يصبح النمر كلباً في اليوم العاشر ؟![1]

في البداية كان لا يكفّ عن النباح، ولكن حسّ الفجيعة والأسى كان يختفي فجأة حين تطل عربة الجنرال، حين يصعدُ الشرفة، حين يُلقي الطعام، ويندفع الكلب تحت قدميه "مصوصواً" كدجاجة.

نعم، المعادلة توضَّحت الآن: *الكلب يصبح دجاجة، فلماذا لا يكون النمرُ كلباً؟ تباً "لزكريا تامر" وقصصه كلّها!!*

نعم الحلّ يكمن في القضاء عليه. لا لأن الكلب رفع وتيرة نباحه في تلك اللحظة، بل لأنه ذكّره بنفسه. فهو لم يحس بكونه كلباً مثلما أحسَّ في تلك الليلة.

---

[1] – إشارة إلى قصة الكاتب السوري الكبير زكريا تامر: (النمور في اليوم العاشر).

قال: *الجنرال لم يضع الكلب هنا عبثاً*، *هو يواصل لعبته معي*. وعبرتْ جمجمتَه: *قصيدة لعينةٌ لشاعر لعين من هاييتي*، يذكُرها، وربما يذكر اسم شاعرها، دوبستر، نعم رينيه دوبستر:

إنها قصة كلب صغير
له عينا شيخ تَعِبٍ
كلب يعرف كل ما يمكن أن نعرفه
عندما نقضي حياتنا في الشوارع!
إنه يعرف لماذا يوجد في هاييتي رجال
يحملون نظارات سوداء في عزّ الليل
وهو قد يموت خجلاً لو كان عليه هو أيضاً
أن يحمل نظارةً سوداء!
وهو يعرف لماذا آلاف النظرات ترمقه
عندما يجد عظماً يقضمه
وهو يختبئ حتى يأكله
ويدير رأسه بعنف
عندما يرى صبية في الثالثة عشرة
تمنحُ شبابها الغضّ من أجل قطعة خبزٌ

لم يجرؤ أن يتذكر أكثر من ذلك. فهو رأى جيداً، وهو يعرف الشوارع، وستظلّ تلك الشقوق السّاقطة من جدران طفولته تتجمّع فيه مهما ابتعد.

كان عليه أن يسدّها، ولكنه بدل أن يفعل ذلك، هزّ آخر ما تبقى من الجدران، فاتّسعت الشقوقُ، وظلتْ تتبعه عابرة دمه.

كان قد ابتعد كثيراً عن المنزل، لم يستطع أن يعرف كيف قاد السيارة كل تلك المسافة. للحظةٍ توقفَ، استدار باتجاه البيت، حين اعتقد، هكذا، أنه نسيَ مفاتيح السيارة في جيب سترته التي كان يرتديها صباحاً!! توقّف فجأة،

فبدا كما لو أن السيارة فقدتْ عجلاتها في لحظة واحدة وهوتْ ملتصقة بالأرض..

وعندها، بكى..

بكى كثيراً..

فاستراح.

***

في الصحيفة قيل له في ذلك اليوم البعيد: إن الجنرال استدعى رئيس التحرير لأمرٍ عاجل، وقد ترك لك الأخير ورقة في مكتبه.

صعدَ الدرجات باتجاه المكتب. وثيراً كان. لطالما تمنّى أن يحتله لساعات، لساعات فقط، ويمسكَ زهرةَ الهدوء من عُنقها! كان يدرك أنه أكثر أهميةً من رئيس التحرير وأكثر شعبية منه، أما إذا ما نظر إلى المسؤولين عن الأقسام الأخرى فإنه أكثر أهمية منهم مجتمعين!

رغم ذلك، كان عليه دائماً أن يلبي نداء رئيس التحرير، وأن يجلس صامتا بانتظار انتهاء رئيسه من قراءة ورقةٍ في يده، كما يحدث في المسلسلات التلفزيونية التقليدية.

هذه المرّة سبقه المُراسِل. فتحَ باب المكتب.

- هل تحتاج شيئاً، أستاذ؟!

- شكراً.

دخل مكتب رئيس التحرير. لأول مرة يجد نفسه وحيداً فيه. تأمّله جيداً، بحريّة لم يعرفها من قبل. رأى المُغلَّف على الطاولة، تناوله "الأستاذ أحمد الصافي المحترم".

فضَّ المغلف..

فضَّ الورقة الصغيرة..

"أرجو أن تقوم بمهامي هذه الليلة، فأنت الأكثر خبرة بين الزملاء".

تذكَّر أن رئيس التحرير لم يعمل في الصحافة إلاّ منذ خمس سنوات فقط؛ وعلى الرغم من ذلك أصبح رئيساً للتحرير، وهو أحمد الصافي ككاتب معروف ويتمتّع بشعبية - حتى على المستوى العربي!- لم يستطع أن يكون أكثر من كاتب زاوية يومية: "الحقيقة الحلوة، والحقيقة المُرّة" في صحيفة "الحقيقة الحلوة" وظلَّت مقالاته رهينة مقص رئيس التحرير.

واصل القراءة: "كما أرجو أن تنوب عني الليلة بكتابة "كلمة الصحيفة"!

عند الكلمتين الأخيرتين تسمّر أحمد الصافي. هذا ما كان يخشاه دائماً: أن يُزجَّ به في كتابةٍ لا تُمثِّله! وعندما تأكد أن ليست هنالك أي مناسبة رسمية، ارتفع نصل الكابوس عن عنقه، فتنفّس بارتياح!

***

.. واقفاً كان لما يزل، حين طُرِقَ البابُ. تقدَّم المُخْرِجُ الفني حاملاً إحدى الصفحات الداخلية بين يديه لعرضها على "نائب رئيس التحرير"!

أدهشه أن يتكلّم المُخرج الفني بذلك القدر من الاحترام.

استدار، احتل عرشَ الصحيفة. أحسَّ براحة، وتسللت نعومةُ الكرسيّ إلى روحه، عبرَتْهُ خاطرةٌ: *من يستطيع أن يعرف أهمية ونوعية وحجم كتابتي لو أنني كتبتُ قصصي وأنا جالس على مقعد كهذا؟! ولكن ربما لم أكن لأكتب شيئاً، لا مستحيل! فأنا كاتب رغم كل شيء، رغم كل الظروف، كاتب ومبدع؛ ومثلما لم يُقلل من قيمةِ قصصي الكرسي المتواضع الذي أكتب من فوقه، فإن دفء هذا الكرسيّ لن يسلبني شيئاً! بالعكس، سيعطيني مزيداً من الراحة!*

تناول الصفحة من بين يدي المخرج، وباشر القيام بدوْره فوراً: دعْها، سأتصل بك بعد مراجعتها!

قالها بلهجة ثابتة، تليقُ بكاتب معروف يتمتّع بشعبية واسعة. قالها بلهجة ثابتة لا يمكن أن تكون مجرد كلمات نائب رئيس تحرير لليلة واحدة!

رنّ جرس الهاتف، التفتَ، لم يستطع أن يحدد مصدرَ الرّنين فهناك ثلاثة أجهزة، قدَّر في النهاية أنه قادم من الجهاز الأحمر، الخط المباشر! رفع السماعة، باشره الصوت: مرحباً أحمد، هل قرأتَ الورقة، أتحدَّث إليك الآن من مكتب الجنرال! لن أستطيع الحضور الليلةَ، أرجو أن تقوم بكل الأعمال اللازمة، لا تنس "كلمة الصحيفة"، فالجنرال يعرف أنك ستقوم بمهامي هذه الليلة، ها، بيِّضْ وجهَنا!

أُغلقت السماعة، دون أن يتاح له مجال للردّ بكلمة واحدة. دوّى الصمتُ من جديد، احتلَّ الذرّات المتناثرة في الهواء، فانتفَخَتْ، ثم دوّى انفجارها!

- الجنرال يعرف، هل هي مصادفة أن أقوم بمهام رئيس التحرير هذه الليلة؟ لماذا لم يَقُم بها سكرتير التحرير مثلاً؟ هو امتحان إذن!

كان قد نسيَ الصفحة تماماً، نسيَ، أن ليل الصحافة سباقٌ مع الزمن، مع المطبعة، مع الفجر، وعلى الصحيفة أن تُشرق قبل الشمس لتكون فاتحة نهار الناس!

أعجبتْه الفكرة، إبداعيتها، إيحاءاتها: *سباق الحبر الأسود مع الضوء الذهبيِّ، وها أنا أعمل من أجل أن يفوز الحبر، قرر أن يكون هذا موضوع الافتتاحية.*

عاد المخرج الفني بعينيه الصغيرتين وأنفه الحاد كسكين. طرق الباب، دخل:

- هل اطَّلعتَ أستاذ أحمد على الصفحة.

- دعْها! قلتُ لك سأتصل بك! ولكن المُخرج الفني لم يتحرّك.

أُستاذ أحمد: الأخبار التي تتردّد هذه الأيام في الصحيفة كثيرة ومُفرحة، يقال إن قيامك بمهام رئيس التحرير، حدثٌ فاصل في كلّ ما يتردد في الخفاء!

- أي خفاء وأي أخبار؟

- هناك منصبٌ جديد في الطريق إليك! قالها وهو يبتسم بمكر، وكأنه يريد أن يسبق الجميع في زفّ الخبر إليه، كي يضمن موقعا خاصا في قلب أحمد مستقبلا!

ذكّرته العبارةُ بقارئات الفنجان؛ يتحدّثن بالطريقة نفسها، ولكن لِمَ لا يصدّق ذلك، وإن كان لا يريد تصديقه لِمَ يمنع نفسَهُ من سماعه!

***

تلك الليلة أصبحت بعيدة، مرَّت بسلام، وجاءت ليال غيرها، فتغيّر الكثير..

لم تقل له فتنة: إنه تغيّر. استيقظ في دمها نداء بعيد. عاودها الحنين لما قبل زواجها، لتلك الحياة التي تجاوزتها بعد أن اقتحم أحمد أيامها بتلك العبارة..

بعد الأمسية التقيا في ذلك الشارع الهادئ. كانت ترتدي ذلك البنطال اللعين من الجينز، وتلك السترة البيضاء والبلوزة الحمراء الضيقة، كأنها رتَّبَت المصادفةَ لتجتاحه ثانية بكامل فتنتها. لم يسألها عن اسمها. وعندما سمع الناس ينادونها به، تناساه تماماً.

كانا قد استرقا الخطى وتوغلا داخل الشوارع المشجّرة حول النادي. كانت تتحدّث، ولم يكن يسمعها، كان يرى شفتيها فقط. قاطعها فجأة، توقّفتْ، نظر في عينيها: منذ رأيتكِ قلتُ في نفسي هذه امرأة إذا ما رأيتها ثانية فلن الجم تلك الرغبة القوية الجامحة في داخلي لكي أندفع لمعانقتها حتى في الشارع العام!

تلك العبارة فجّرت فتنتها كاملة. دارت نصف دوْرة، قالت:

- وأنا أحب أن أقول لك: والبنات أكثر جنونا!

- كيف؟

وبدل أن تجيب، اقتربتْ، شدّته إلى صدرها. التفتَ حوله، كانا في شارع عام! غبش الساعات الأخيرة من النهار اختطف جسديهما، وخبأهما.

ولكن ليس إلى تلك الدرجة التي لا يعودان فيها مرئيين.

طارت به إلى طرف الرصيف، دفعتْه باتجاه ياسمينة مجنونة معرّشة على أحد الأسوار، واختفتْ به هناك.

***

صعدَ أحمد الصافي. قال لها: هذا حقّي، إن الشيء الأهم من كل ذلك أنني لم أتغيّر! وفرحتْ هي، حين غادرتْ تلك"الحظيرة" بلا عودة، وطفا على روحها توقٌ كانت تحاول تناسيه.

لقد أصبح الآن من أصحاب المناصب!

***

هذه المدينة ستبقى قرية مهما اتّسعتْ، ستبقى قرية مهما استعارت من مظاهر المدن الكبيرة، وعنْزَة حتى وإن طارتْ!

صعدتْ من جوانب الأودية إلى رؤوس التلال، وظلَّت تصعد حتى لم تعد تَرى القاع! ولكي لا تمرّ به فيذكِّرها بشيء، مَنّ الله عليها! فلم تعد الينابيع تتفجّر، فضمرتْ السيول، ولم يبق سوى مياه المجاري المندفعة بيسر لتحتل مواقع الينابيع، وتتفجّرُ هناك نَتَناً. وهكذا، كان هناك ما يبرر دفن الأودية!

هذه المدينة ستبقى قرية مهما اتّسعت.

نبحَ أحد الكلاب في حديقة الجنرال الواسعة، تذكَّر الكلبَ في شرفة بيته الجديد، وتذكَّر أحمد الصافي.

قال: *هذا الغبي، صدّقَ أخيراً أن استدعاءه سيستمر بصورة يومية إلى الأبد! كنا نعرف جيداً أصله وفصله، ونعرف أننا نتعامل مع كاتب مدجج بحضوره الفارغ! ولكن، كان علينا أن نلتقي وإياه في منتصف الطريق في البداية. لقد نما هكذا، فجأة، في غفلة منّا، وإلا لكنّا قَصَصْنا رقبَته مبكراً! والآن، من يذكر أحمد الصافي كاتب القصص؟ نحن لم نحيّده فقط، بل هو ابننا.*

***

في تلك الليلة البعيدة من شهر آب أحضروا شابين وقعا في أحد الكمائن المتقدِّمَة، كانا عائدَين من فلسطين المحتلة. دخل الجنرال عليهما بعد أن حظيا بوجبة دسمة!! لفتَ انتباهه وجود قُصاصة من جريدة على الطاولة. فتحها: قصة قصيرة.

- قصة قصيرة؟!

ضحكَ: "طفلُ الليلة الطويلة"!

شرح له مساعدي الخاص أنه وجدها في سترة أحد المعتقَلَين.

سأل المعتقل: ما هذا؟!

ردَّ: ما تراه.

عندها انهال عليه أحد المحققين ضرباً. لم يعد بعدها قادراً على الوقوف. رفع الجنرال وجهه بطرف الحذاء، وأعاد السؤال:

- ما هذا؟

وردَّ ثانية: ما تراه.

- يجب أن أكسره.

حطّموا صاحبه الجريح أمامه، وعندما اكتشفوا أنهم بالغوا في ذلك أخذوا الجريح إلى غرفة أخرى.

ولم يستطيعوا كَسْره.

- قلت: لا يقبل الحديث عن قصة في جيبه!! معنى ذلك أننا لن نستطيع انتزاع المعلومات الأخطر المتعلقة بمهمته، بقطعة السلاح، مصدرها.

***

وأوغل الليل في بحرهِ.

- هذا الليل لي، أُشكّله كما أشاء، أَسِرَّة أو مشانق، أحلاماً أو كـوابيس، هذا الليل لي، أبسطه أمامي بعيـون حـراسي، فـأرى ظلمتـه عاريـة بكامـل فضيحتها!

تناهت إليهم صرخاتُ بعض المعتقلين في أقسام أخرى، منقـوعين في هبّات السّياط، التفـت الجنـرال إلى وجـه المعتقـل، كـان بريئـاً إلى درجـة لا تُصدَّق.

سأله الجنرال: كم عمرك؟ تبدو صغيراً!

لم يُجب.

- هل كنت تحمل بندقيتكَ أم كان رفيقك البَغْل يحملها عنك؟!

ضحك، أراحه ذلك، وظلَّ الشابّ جامداً مقدوداً من صخر.

دخل أحد المحققين، سأله الجنرال: كيف حال الآخر؟

اقترب المحقق وهمس في أذنه: وضعه صعب.

- لا عليك.

عاد يهمس: كنا نعتقد أنه سيحتمل!

- لا عليك!

استدار الجنرال: أيها الولد، أُحب أن أُذكِّـركَ: لا أحـد يعـرف أنـكَ في قبضتنا الآن، من الممكن أن تكـون قـد قطعـتَ الحـدود، وقمـتَ بالعمليـة وبعدها اختفيـتَ؛ بمعنـى أن دمـك مـوزَّع بيننـا وبـين الجـيش الإسرائـيلي وحقول الألغام.

وظلّ المعتقل صامتاً.

تذكّر الجنرال القصة الملقاة عـلى الطاولـة: لعـل صـاحبكَ كـان يُطلـق الرصاصَ، في حين كان سلاحك هذه القصة! كم كلمةً أطلقتَ؟ هـا، كـم كلمة؟ الذين أرسلوك أعطوك، فعلاً، السلاح المناسب لك! هـل اقتحمـتَ

الحدود بهذه، أم كان عليك أن تُؤَمِّنَ انسحاب رفيقك بها؟! كنتَ فرقة المساندة إذن. ولهذا أُصيب البغل، لأن ظهره كان عارياً.

التقط القصة، كانت على وشك أن تذوب: لقد أُستخدِمَتْ كثيراً. "طفل الليلة الطويلة" قصة بقلم أحمد الصافي!

التفت الجنرال إلى المحققين: من أحمد الصافي هذا؟!

- كاتب نكِرة سيدي، ليس أكثر! أجاب أحدهم.

تكتَّلت قبضة المُعْتَقل الصغيرة، فرأى الجنرال الغضب شرراً يزوبع في عينيه.

قال في نفسه: *أيغضب لهذه الدرجة!*

خرج: أريد نتائج في الصباح.

وحمل قصاصةَ الجريدة البالية ومضى.

***

قبل أن يغادر مقره، استدعى أحد رجاله: احضروا هذا الأحمد العَكِر، حتى لو كان تحت الأرض!

خرجَ المحقق مبتهجاً، فأدرك الجنرال، بعد ذلك، أن السبب هو عدم سؤاله عن نتائج التحقيق!

الأستاذ أحمد الصافي المحترم

تحية طيبة

.. أنـا "طفـل الليلـة الطويلـة"، إن هـذه الـروح المتفجّـرة هـي مـا يربطني بك، كما أشعر أن الغضب يوحّدنا. قرأتُ قصصك كلها، حتى تلك التي لم تكتبها! وأحببتُ أن أراك دائماً لأقول لك الكثير.. عني، وعنك ربما، أحببتُ أن أقول لك: إنني أنا طفل الليلة الطويلة، وإنني غير قابل للموت.

إليك يا من تعلو كلمتك حتى يسمعها الجنين داخل الرّحم ويطالب بالولادة. قلما نجد من يعبر عن أوجاعه - أوجاعنا، أحاسيسه – أحاسيسنا، بصدق وإبداع مثلك، لقد استطعتَ بكل إعجاز أن تجعل اللغة كالنبع يجري عبر حقولنا بلا حواجز.

أقف أمامكَ لأقول: لقد استطعتَ أن تحطّم خوفنا، وتجدّد فينا مستقبلنا، ولم تعد الكلمة الشجاعة سجينة بين الضلوع، لقد وجدتْ امتدادَها في الناس. إنك لنا، إبداعنا من أول قصة كتبتها حتى القصة التي لم تكتبها بعد، من "عيون الصقر" مجموعتك الأولى حتى "قامة الرمح" مجموعتك الأخيرة..

أستاذي الكريم.

محبتي لك، وأجدد القول: أنا "طفل الليلة الطويلة"، وقريباً سأتجاوز كل شيء لأكون، طفل قصتكَ، إبداعكَ. فانتظرني

المخلص/**سعد**

***

انتشرت سحبُ الدخان في قاعة النادي الثقافي، الأمسية انتهتْ، تدافعت الكلماتُ تبحث عن معناها معلنةً انبهارها بالقصص المقروءة.

فتياتٌ، سيداتٌ، كتَّاب وطلبة، احتشدوا في ذلك الشريط الضّيق المدعو (قاعة)، وعندما انتشروا في نهاية الأمسية كانوا يملأون الشارع والشرفة.

من يصدّق، أن قاعة صغيرة يمكن أن تتّسع لكل هذا الانبهار؟

تحوّل الناس يومها إلى سحابة خضراء.

يعرفُ كيف يبدأ القصة، يعرف كيف يشدُّك من قلبك نحوها، ويعرف كيف يمنحها أجنحة.

تمايلت اللوحةُ الجانبية الوحيدة المُعلَّقة في الممرّ، بفعل ارتطام أكتاف الجمهور بها أكثر من مرّة.

كان الطائر يقفُ على مسند الكرسي، وعلى الرغم من أن أجنحته مضمومة إلى جسده برفق، مثلما تفعل كل الطيور، إلا أن الناظر إليه كان يرى الخفقان السِّريّ لتلك الأجنحة. الطائر ضامٌّ جناحيه، ولكنه مُحلِّق! الأفق حوله كحليّ مائل للسواد، ولكن انبثاق لون الطائر في منتصف اللوحة. والضوء الخجول المنعكس من أجنحته على المسند والظل الممتدّ لجسده الصغير على أرضية المكان، تؤكد الإحساس بالطيران، نعم، في الظلِّ تلمح خفقة جناحيه أكثر وضوحاً.

بسيطٌ، للوهلة الأولى، تألفه، على الرغم من أنك لم تشاهد طيراً مثله، وفجأة ستدركَ السبب، إن ما فيه يذكِّرك بملامح طيور البلاد كلّها.

اقترب الفتى منه بخجل، شقَّ الصفوف. مرّة أو اثنتين فكّر أن يبتعد، وكلما تجاوزَ جسداً أو ارتطم كتفه بكتف سيّدة تفصَّد جبينه عرقاً. مسافة بسيطة، ولكنه طالما تردّد في قطعها في أكثر من أُمسية، رغم أنه قادر على اجتياز ما هو أخطر منها. هكذا دائماً كان يحسّ. وفي كل مرة. كلما حاول

الاقتراب، تذكّر أنه لم ير شاعرا أو كاتبا عن قرب. دائماً كان يراهم يسمعهم يتخيّلهم في كتب المدرسة. كيف، كيف إذن يرى كاتباً بلحمه ودمه على الأرض، وهو وإياه تحت سقف واحد؟!

في يده كانت الرسالة، همس: مرحباً!

لم تُسمع وسط ذلك الهدير المتصاعد للحروف المتقاطعة التي يصعُبُ تجميعها في كلمة واحدة. اقتربَ أكثر، أصبحَ بجانبه تماماً. إذا قال مرحباً هذه المرّة ولم يسمعه أحد، لن يعود إلى قولها ثانية أبداً! انصبَّتْ حواسه كلها في الكلمات التي ينطقها كاتبه، كانت الأصوات قد تلاشتْ، لم يبق غير صوته..

قال أحمد للفتاة التي كانت تمدّ له دفتراً في يدها وتطلب منه أن يوقِّع لها وقد احمرَّ وجهه: أنا واحد منكم، لا أستطيع أن أفعل ذلك، لست نجماً، مجرد إنسان، أنا أخ، صديق، ومعكم دائماً!

جاء دوْرها الآن، احمرَّ وجهها، فأوقعتْه في حَيرة. كتبَ لها عدة كلمات طيبة ومهرها بتوقيعه، وكان أشدَّ منها حرجاً.

عند ذلك ضغط الفتى الورقة القابعة بين أصابعه مثل عصفور عار، وللحظة فكّر أن يعود، ولكنه أحسّ أنه قد لا يراه مرةً ثانيةً، ثم إنه لا يطلب توقيعه!

- أستاذ أحمد.

- التفتَ إليه.

- أنا "طفل الليلة الطويلة"! وناوله الورقة واختفى في الزحام.

همس أحمد لنفسه: *"طفل الليلة الطويلة"؟* همَّ أن يوقفه، إلا أن الشابّ كان قد أبتعد، مُخلِّفاً مسحةَ الخجل الورديّة وملامحه الصغيرة في العينين.

***

مدينة عجيبة لعلها الوحيدة في العالم التي تنام في السابعة! للرّصاص صدى في امتداداتها، وفي واجهات البيوت، حيث تتطاير الحجارة فتاتاً، وينهار زجاج النوافذ.

مدينة في اليوم العاشر! هذه هي المأساة، وأطلّ السؤال الذي يحزّ قلبَ أحمد الصافي: هل يلزمنا عشرة أيام للعودة بها نحو صهيلها؟ يدرك الآن أن ما حدث للنمور في عشرة أيام، حدث للمدينة في عشر سنوات. خوف يربض في الزوايا، رائحة جثث، شهداء يتخندقون بطيفهم، متربصين للانقضاض على خطوات الصمت، ودوائر النسيان! من ينسى؟! المدينة لا تنسى، ترفع جدرانها، بناياتها، وتبتلع المساحات الخضراء والحمراء، تنطلق الشوارع.. يبتعد البشر عن أحلام بعضهم بعضا، يفتقدون البنادق، يغوصون، يُعمِّرون بيوتاً جديدة ويزرعون الدوالي والدفلى على أبوابها، ويجيء المساء، يختفون في جحورهم، يتأخّر واحد من أبنائهم فتقوم القيامة وراء الجدران: هل تعتقد أن هذه الدنيا لنا، لتظل متسكعاً في الشوارع حتى الآن؟! وتتزاحم البيوت، تفترق، وفي الجانب الآخر من المدينة حيث تغرب الشمس، أو تُعتقَل هناك، لا فرق، عالم آخر، يقطعه أحمد الصافي من قاعة النادي الثقافي إلى باب بيته.

لم يعد يسمع سوى إيقاع خطواته، رتيبا يشقّ الهدوء، يستعيده من رحيله، أو يطلقه في أحزان جديدة.

تتفجّر رائحة الأرض مختلطة بدماء قديمة، داعية البذور للأعراس كلما شقَّت امرأة باب بيتها ودلقتْ مياه الاستحمام في الشوراع على استحياء؛ هذه المياه المضمخة بما علق بالأجساد من عرق وغبار وبما لم يجد طريقه ليكون بشراً من ماء الرجال، وشهوة النسوة!

كان يشم رائحة الأرض، ويبتهج وهو يرى خجلاً طائراً، يفلتُ من ملامح امرأة فوجئتْ بمروره عبر الزقاق.

***

قَرَع الباب. فجأة آله أن فتنة لم تحضر الأمسية.

- من يرعى الولد في هذه الزَّريبة؟!

هكذا قالت شبه صارخة. هكذا تقول دائماً وتترك السؤال مُعلَّقاً!

ابتلع كلمة الزَّريبة: ولكنك لم تحضري الأمسيات إلا مرات قليلة حتى قبل قدوم الولد!

- كنت حُبْلى.

أدركتْ أن الحوار سيقودهما إلى صراخ. كانتْ تخشى استيقاظ الولد، ثلاث سنوات ونصف السنة، عمره الآن، قالت: لا تغضب، فأنا أعيش قصصك معك! ولكن فلتعترف، لقد تغيرتَ!

- لأنكِ ترينني الآن عن قرب.

لم تفهم في البداية، استلَّها صوت الصغير. هكذا يحاولان دائماً حشر حوارهما في دائرة الهدوء، يتصاعد ويقترب من الانفجار، ثم يؤجِّله وجود الصغير، بؤرة أُخرى تتركَّز فيها حواسّهما، فيتجاوزان البركان.

- من يمتلك القدرة على إسكات طائر؟

- أنا.

جاءت كلمة "أنا" كبيرة حقاً كطلقة بندقية.

قال أحمد: تقتله؟!

- إحدى الوسائل.

أدرك "الأنيق" أن الحوار مضى في غير ما يريد: *نحتاجه حياً لا ميتاً، حياً في أقفاصنا.*

***

قال الجنرال: هل أحرزتم أي تقدُّم مع أحمد العَكِر هذا؟

قال الأنيق: عنيد!

- لا بأس، أرسلوه إليّ.

هتف الأنيق: إليكَ؟!

***

كانت التقارير السريعة قد أكّدتْ أن أحمد الصافي أكبر مما يتصوّر الجنرال؛ وفي اليومين التاليين حين كان الجنرال ينتظر حضوره، أعاد قراءة ثلاثين مقالاً من مقالاته المنشورة خلال تموز الماضي.

لم يجد بعدها سوى كلمة واحدة لوصفه: مُتَنَمِّر!

***

لم يحضر في الزمن الذي كان الجنرال يريد حضوره فيه. فكّر بإرسال مجموعة من حراسه لاعتقاله، بصفته شريكاً في التحريض على القيام بعملية عسكرية غير مشروعة، ولكنه أحجم عن القيام بهذا في اللحظة الأخيرة.

- إن تقديمه لمحكمة عسكرية بتهمة كهذه، سيجعلنا أضحوكة في الصحافة الغربيّة، وسنجعل منه بطلاً.

كان يخشاها، تلك الصحف، يخشاها وحدها، أما تلك الصُّحف والمجلات العربية المنتشرة في العواصم الخاربة أو العامرة، فلم يكن يهمّه أمرها.

حضر مساعده الخاص.

- سيدي، الصافي وصل.

- قلتُ لك العَكِر!

- لقد وصل!

- مَن؟

- العَكِر، سيدي.

***

فوجئ أحمد تماماً حين دخل. كان يعدّ نفسه لكل شيء إلاّ لشيء واحد، لم يكن يتصوَّره، أن يكون هكذا وجهاً لوجه مع الجنرال.

- ارتبك.

- تفضّل. وخطا الجنرال باتجاهه، صافحه.

- الأمور الحساسة أُحب أن أقوم بها بنفسي، هكذا، دائماً! ثم إن شخصية معروفة مثلكَ لا نتركها لصغار المحققين!

- تفضل هنا، أستاذ أحمد، الرجال الكبار لا يُقدِّرهم سوى الرجال الكبار! وأعتذر لك إن كان أحد أساء التصرُّف معك! كنتُ أودُّ أن أراك منذ زمن، ولكن أنت تعرف، المسؤوليات كبيرة، وكثيرة أيضا.

ظلّتْ الدهشة تعبث بملامح أحمد الصافي.

- ها أنتَ تقف وجهاً لوجه مع شخص يمثل لك الموت، الموت يبتسم، يأخذ مقعده، ويُخيّرك أن تشرب شاياً أو قهوة!

- شكراً.

يمد الجنرال يده بعلبة تبغ.

- شكراً.

- على راحتك!

- ديموقراطية الرصاصة المُنطلقة! الفضاء المُعَلَّق بين قضبان زنزانة! الصراخ في ساحة تعذيب! المسافة البيضاء الفاصلة بين الجسد وصعود الروح!

- مِنْ زمن كنا نحب أن نراك! بصدق أقول لك: فرصة سعيدة! إنني من قرائك، أستطيع مثلاً أن أعيد عليك قراءة فقرات طويلة من مقالاتك! بدأ الجنرال باستعادة عناوين المقالات المنشورة خلال تموز. فوجئ أحمد الصافي أكثر. وحين بدأ الجنرال بتجاوز العناوين للدخول إلى ما هو أكبر منها، كان أحمد الصافي فريسة الدهشة. سرّه أن كلمته تصل!! لم تكن تضيع في الفراغ إذن! سرّه أن الجنرالات، أيضا، يقرأون كل كبيرة وصغيرة! يقرأونه!

تلا الجنرال مقاطع من مقالات كان يُخيَّل لأحمد الصافي أنها كُتبتْ منذ قرن.

كان يأخذه صوت الجنرال بعيدا، إلى احتمالات متضاربة.

اليوم يوم المفاجآت!

تنبّه أن الجنرال يوجّه الكلام إليه: أُلاحظ، أستاذ أحمد، من مقالاتكَ أنك تقع فيها يقع فيه غيرك من كتّابنا الذين نحترمهم، وهذا له سبب واحد في اعتقادي: إنكم تتخيّلوننا عن بعد، في حين أننا أقرب إليكم مما تتصوّرون!

- ... !

- على كلٍّ، أنا سعيد بمعرفتك، سعيد جداً.

وقف الجنرال معلناً انتهاء المقابلة.

صافح أحمد الصافي.

- فرصة سعيدة.

- شكراً!

***

عَبَرَ الممرات، جاب كلَّ خلايا دماغه، عروق دمه، باحثاً عن معنى واحد لهذه المقابلة. كلّ حساباته واستعداداته غرقتْ في بحر، بل في مستنقع!

- تذهب وأنت ترسم صورةً ما، لمحقق ما، فإذا بك أمام الجنرال مباشرة. وفوق ذلك يفاجئك، إنه يقرأ مقالاتك، ولا يدعكَ تنطق سوى كلمة واحدة: "شكراً" تردّدها ثلاث مرات، يُعلن إعجابه بمقالاتك اليومية. من قال إنه لا يقرأ الصحف؟! ولكنه يقفز فوق أهمّ ما فيك: قصصك.. إبداعك! ماذا لو سألكَ عن "طفل الليلة الطويلة" ومن هم جنرالات تلك الليلة؟! لا، لا يمكن أن يكون قارئ مقالات إلى هذه الحد ولا يعرف شيئاً عن القصص! هل تحمل هذه المقابلة رسالة خفيّة؟ هم أكثر ذكاء مما كنا نعتقد، ألم يقنعونا بأن النصر يدقّ أبوابنا، وليس لنا إلّا أن نقوم ونحتضنه أكثر من مرّة، ثم حطّموا بالهزائم حياتنا! أذكياء، وإلا كيف استطاعوا أن يقودوا البشر إلى المسالخ كالنعاج كل هذا الزمن! نعم، هذه

المقابلة تحملُ في طياتها شيئاً واحداً له معنى: إنهم يؤكدون حضوري كصحفي ويلغونني كقاص!

تجاوز البوابة الحديدية المدجّجة بالجنود، غاص في بحر الناس، عبر صدرَهُ هواءٌ مضيء. لم يبتهج أبداً، من قبل، مثل الآن: إنه موجة في بحر الناس، ولم يسبق أن عبرتْ صدره نسمة كهذه!

اتّسعت أضلاعه، رئتاه، وانبسط الشارع أمامه يومَ حريةٍ..

***

استغرق تماماً في مقاله. تصبّب عرقاً. هكذا كان دائما حين يكتب، يكتب بكل روحه، بكل حواسّه. يحس أنه يركض، يسابق الكلمات، ينـدفع خلْفها، ثم يتنفّس بعمق، لا يعيد كتابة المقال، يدفعه للمراسل الذي يحمله لرئيس التحرير، أو يذهب بنفسه ليسلمه، أحياناً، حين يتوقّع أن في المقال ما يمكن أن يستثير القلم الأحمر!

ضغط مفتاح الجرس، حضر المراسل، تناول المقال، اختفى، قفزتْ إلى مخيّلته صورة الجنرال يقرأ المقال صباحاً ويهزُّ رأسه، وهو يتابع الكلمات عبْرَ السطور بنظراته الخبيرة.

- *كتبتُ كما يجب أن أكتب كل يوم!*

وابتسمَ لأن صورة الجنرال لم تعبر مخيلته إلا بعد انتهائه من كتابة المقال.

رنَّ جرس الهاتف: تناول السماعة.

- معك، مكتب الجنرال، نريدك صباح غد!

أُغلِقَ الخط. أعادَ السماعة.

- *هل بدأت المقابلة تأخذ معناها الآن؟!*

تذكَّر ما كتبه، تمنى أن تكون لدية مسوَّدة، فكَّر بطلب المقال من رئيس التحرير، نهض مسرعاً:

- إذا سمحتَ، هل يمكنني تصفّح المقال. أخشى أنني وقعت في خطأ ما.

- اطمئنْ المقال جيد، لقد أرسلته إلى المطبعة.

- شكراً.

خرج من مكتب رئيس التحرير، غادر مبنى الجريدة.

صفرة الموت تندفعُ في الشوارع. عبور العربات الطائرة يشقُّ الأوتستراد. يتجاوز أحمد الجزيرة إلى الرصيف المقابل، يندسُّ في حافلة فارغة توقَّف سائقها في اللحظة الأخيرة بعيداً عنه، ربما بعد أن هزّه ضميره، وفكّر في أن يحمله أو يتركه، وتذكر أخيراً أنها الحافلة الأخيرة، فالساعة تقترب من التاسعة!

***

انتظر حتى الثانية ظهرا في قاعة المقرِّ، قاعة الصمت الممتلئة بالناس. كأنه لم يبق أحد في الخارج إلا وزُجَّ به هناك. العيون تحدّق في الملامح الحاضرة الغائبة، والصمت يأخذ امتدادَهُ، أصفر، مترقباً.

كثيرون قرأوا الجرائد عن آخرها، دون أن يسمعوا أسماءَهم عبر مكبر الصوت.

لمح عجوزا يقرأ الصحيفة التي يعمل فيها. قلَبَ العجوز الصفحة: هو الآن وجهاً لوجه مع مقاله، تردّد قليلاً ثم بدأ بقراءته.

حاول أحمد الصافي الوصول إلى معنى ما من خلال مراقبته لملامح العجوز، فاكتشف أنه يفكِّر في بياض شعر لحيته وشاربه، وخصلات متناثرة من شعر رأسه تتسلل بيضاء من تحت الغطاء الأبيض.

وقت لزجٌ ينساب في العروق. لُزوجة في الأصابع، في الصوت المتدفِّق من مكبر الصوت، من وجوه العاملين في هذا المكان المغلق، الخانق.

فرق كبير بين اليوم والأمس!

دورة الوقت تجاوزت الثانية ظهراً. لم يبق كثير من الناس. سـمِعَ اسـمه في السماعة، وكان يراقب خط سير البشر عند انطلاق أسمائهم، تَبعَ الصوت إلى الخارج.

هناك، ناولوه ورقة صغيرة!

- عد غدا، الثامنة صباحا!

- *الآن بَدَأَت اللعبةُ*. همس لنفسه وهو يتناول بطاقة هويته مـن موظـف الاستعلامات ويغوص في الشوارع ثانية.

الظهيرة حادة، والوجوه مليئة بالضجر.

" **على الرغم** من أن صفحات جرائدنا اليومية مُشْرَعة دوماً لنشر خطط الوزارات والدوائر والمؤسسات الرسمية والشعبية أيضاً. وعلى الرغم من أن كلّ خطوة يقوم بها مسؤول ما، تعمل الصحافة على تغطيتها بالخبر والصورة، مهما كانت هذه الخطوة كبيرة أو صغيرة.

على الرغم من ذلك كله، نجد أن المسؤولين يتمتعون بحساسية مفرطةٍ تفوق حساسية الشعراء وكبار الفنانات تجاه أيّ انتقاد يوجَّهُ إلى وزاراتهم أو دوائرهم، وكأن كل من يعمل في هذا الجهاز أو ذاك معصوم عن الخطأ، وكأن الجهاز نفسه ليس أكثرَ من إقطاعية خاصة.

قبل أيام قام أحد متصرِّفي مدننا بإلقاء القبض على مندوب صحيفة محلية وأودعه السجن لأنه قام بالكتابة، لصحيفته، حول وعورة الشوارع في مدينته!

وفي حالات كثيرة، ما إن يشمَّ المسؤول رائحة كتابة سلبية! حول مشاريعه، ستنشر في إحدى الصحف، حتى يهبَّ لتطويق الموضوع ومنع النشر!

المشكلة أنه يراد من الصحفي أن يكون طبّالا بين مجموعة من الطبّالين، الذين يحلو لبعض مسؤولينا وجودهم بصورة دائمة حولهم، يزيّنون الباطل ويمحقون الحق!

وتتعدّى المسألة الصحفي تلقائياً، ليكون المطلوب صحافة طيّعة مخبوعة لا يُحتمل وجود جملة جامحة واحدة بين سطورها.

ما لم يتحوّل مفهوم المسؤولية إلى مفهوم بناء جماعي يهدف إلى خدمة الناس -لا ستر العورات والتستّر على الفضائح للبقاء أكثر فترة ممكنة على كرسي المؤسسة- ما لم يحدث ذلك، سيبقى النّظر إلى المنصب كإقطاعية، المسُّ بها مسٌّ شخصي جارح بصاحب هذا المنصب أو ذاك".

"أحمد الصافي"

***

فكّر باختيار عنوان ملائم، أعاد تأمّل المقال، توقّف في منتصفه، صعد بالقلم إلى رأس الصفحة، كتب: المؤسسات الرسمية.. والإقطاعيات.

وأكمل قراءة المقال..

استند إلى ظهر الكرسيّ، تنفّس، هو الآن حرّ من الوظيفة، ما تبقّى من وقت سيكون له، له وحده.

رنّ جرس الهاتف.

رفع السماعة.

- آلو، مكتب الجنرال معك، لا تنس موعد الغد، سيكون الحضور في الساعة السابعة بدل الثامنة!

لقد حاول أن يُبعدَ الجنرال، أن يسحبه من دمه ويُلقي به بعيداً وهو يكتب المقال؛ وهذا ما كان، إلّا أنه يعود ويحتلّ بقية السّاعات الواصلة بين تلك اللحظة وصباح الغد.

- ما الذي يريدونه، ما أُحسُّ به أُطلقه عبر الحبر في رسائل صباحية موجّهة إلى كل الناس، ليس ثمة أسرار في داخلي، ليس لدي أكثر مما أقوله في المقال.

- *المقال*؟! ارتجف.

بدأ بقراءته من جديد. إنها المرة الأولى التي يحصلُ فيها ذلك. توقّف عند أكثر من جملة. أعاد قراءته ثانية. فوجئ بالعنوان، تناول القلم، تقاطعتْ الخطوط اختفى العنوان، كتب: "صحافة المسؤول، مسؤولية الصحافة" أعادَ شطب العنوان الجديد كتب، "الصحافة والمسؤول". اندفع عبر السطور. اجتاحتْ خطوط الفوضى الكلمات فبدأت تختفي تحت بقع الحبر الأسود، تكاثرت البقع.

اختفتْ: "بحقّ وبغير حق"، "الناجحة أو الساقطة" ،"في محاولة لستر عورتها"،" كبار الفنانات"؛ بقع سود. "إقطاعيّة"، "الحق"، "الباطل"، بقع سود.. سود..

لم يجرؤ على قراءة المقال ثانية. استدعى المراسل حمله إلى رئيس التحرير. خرج مسرعاً. تلفَّتَ خلْفه، كانت الكلمات التي اختنقتْ بين السطور تُصْدِرُ أصواتاً موجعة، تدفع الحبرَ محاولةً الوصول إلى الهواء دون جدوى، ثم جمّعتْ حروفها في صرخة واحدة، لم يستطيع الهرب منها حتى حينما أغلق أذنيه!

توقَّف، همَّ بالعودة، لكنّه أدركَ أن الجريمة تمّتْ، وأن الميت شبع موتاً!

عَبَرتْ كتلة هواء شرسة بفعل مرور شاحنة مسرعة، صفعتْ وجهه. كان مشدوهاً، لم يعرف كيف قطعَ المسرب الأول للأوتستراد. كانت آخر الحافلات قد أنهتْ عملها منذ ساعة، الشوارع موحشة، رغم الأضواء المنتشرة. الشوارعُ جثةٌ يبددون الصقيع المتدفِّقَ من أطرافها، فيصلبونها تحت الأضواء!

***

في غرفته كان يجلس؛ "فِتْنَة" نائمة وكذلك الصغير. تسلّلَ، أخذ مقعده خلف الطاولة، حاول تهدئة نفسه.

قال: *لو كان المقال قصّة لاختلف الأمر! مجرّد مقال يومي، حِرْفَة لأكل الخبز! نعم، لو كان قصة لاختلف الأمر، إنه مجرد مقال!*

- ولكن الكلمات، كلمات، والصّدق نفس الصّدق سواء قلته شِعراً أو قصة أو مقالاً أو هُتافاً!

عرف مصدر الصوت، كان صوته، صوته هو.

المكتبة أمامه، رفوف الكتب التي أحبّها، الكتب التي أمضى سنوات في انتقائها، كل منها يُشكِّلُ قطرةً من دمه، والمكتبة خلْفه أيضاً.

في الوسط كان يجلس، في أكثر الأماكن قرباً إلى روحه، غارقاً في بحر من الأسئلة. تنبّه فجأة، سمع صوتاً ما، غريباً، مثل ارتطام قدَمي عصفور بأوراق توتٍ جافّة. بحث عن مصدر الصوت، كان قادماً من الرفوف المواجهة له؛ لم يتوصّل إلى شيء. عادتْ الأسئلة تنقرُ نبضاته والهواءَ المضغوط في رئتيه، حين ازداد الصوتُ الغريب عُلوّا.

شاهدَ واحداً من الكتب على الرفّ العلويّ يُفتَح من تلقاء نفسه، وتندفعُ منه كائنات سود. ببطء شبيه بخروج فرخ من بيضة! اتّسعتْ عيناه. كتابٌ آخر في رفّ آخر، بدأ ينشقُّ، اندفعتْ كائنات سود منه! تجمّد في مكانه، سقطتْ قطراتٌ من الحبر من الصفحات البيضاء المُشْرَعة، تجاوزتْ خشبَ الرّفوف، استقرتْ على أرضية الغرفة. حاول أن يقف، إلّا أن شيئاً ما ثبَّته في مكانه بقوة.

مشدوداً إلى الكرسيّ كان. سمع صوتاً خلْفه؛ بجهد، استطاع أن يلوي عُنُقَهُ، رأى كتاباً ينشقّ، ويتبعه آخر، وآخر، والكائنات السود تنطلق من الصفحات مُخلِّفةً بياضاً مُفْزِعاً. قنوات صغيرة من الحبر بدأتْ تخرج شاقةً صفحاتِ الكتب. جداولَ من السّواد، تنبع من الصفحات، تُخلِّفها باردةً كالكفن. يزداد صوت الجداول عُلوّاً، يُسْفِرُ عن صرخاتٍ متقاطعة، الصوتُ يقترب. جداول تلتقي تتحوَّل إلى موجاتٍ، تتفجر من الكتب، من

الأوراق الملقاة أمامه، من الأقلام، والمحابر. شلالات من الحبر الأسود تندفع من الرفوف العليا دون توقّف، تصطخبُ على أرضية الغرفة موجاً، ترتفعُ؛ يحاول أن يصرُخَ، الشلالات تندفع أكثر وأكثر، الكتبُ تُلقي بكلِّ ما فيها. يحاول التمسُّكَ بالطاولة الخشبية أمامَهُ، تطفو الطاولة، تبتعد، تصطدم بإحدى الزوايا، تستقرُّ هناك. يزحف الحبرُ باتجاه صدره صاعداً. تتدفّق شلالات الحبر، أكثر، يختفي جسده في البحيرة السوداء، يصعد من جديد، يلهث. لم يعد قادراً على إغلاق فمه، يستجدي آخر ما تبقّى من هواء، تندفع الأمواج إلى جوفه، يسقط على الأرض، فمه مُشْرَعٌ للموج الأسود الذي يختفي داخله، في حين يبدأ جسده بالانتفاخ شيئاً فشيئاً.

تتساقط الكتب حوله بيضاء، مُشْرِعَةً صفحاتها.

تختفي بحيرة الحبر في داخله مُخلِّفة زبداً لَزِجاً على أطراف فمه، يحاول الصراخ، دون جدوى.

هبـطَ الجنرال الدّرجات المؤدية إلى القبو، بعد أن غادر المـصعد الـذي ينتهي في الطابق الأرضي. ظلامُ القبو شاحب، تزيده الأضواءُ المثبّتة بالجانب الأيمن للممرّ الطويل شـحوباً. جـداران داكنـان طـويلان ينـدفعان إلى مـا لانهاية، إلى مقبرة، حيث تختفي النقطة الأخـيرة فـيهما مختلطـة مـع الكحـلي الميت، لتعطي انطباعاً بأن القبو متاهة يلتصق آخرها بأوّلهـا؛ متاهـة متفرِّعَـةً عن زنازين عـلى الجـانبين بنوافـذ صـغيرة للغايـة. كائنـات بعـين واحـدة، متشابهة، تحدّق في القادمين بِشَرَهٍ بالغ، حيث تتحـوّل القـضبانُ إلى رمـوش معدنية لمشهد معدنيّ!

الحرس يتجاوزون الجنرال في اللحظة الأخيرة، يندفعون إلى باب غرفـة التحقيق، يفتحونها بحركة مـاهرة اعتادوهـا. ينفجـر الـضوء مُعلنـاً مـوتَ المشهد الخارجي وانسحاقه، ومُسْفِراً عـن مـوت أكثـر وضـوحاً في الجـسدِ الذي يتأرجح في سقف الغرفة على شكل صليب صغير بلا تفاصيل.

كان الاقتراب من الصليب البشري يزيد المشهدَ غموضاً، حيث تختفـي الملامح خلف خطوط متقاطعة لدماء وجروح.

صرخ الجنرال، صرخته تلك، حين يأخـذ دور الأب الحـاني: مـا الـذي تفعلونه، حلّوا وثاقه، شابٌّ بهذه الطيبة. تدارك: طفل بهذه الطيبـة لا يجـوز استخدام أساليب سيئة إلى هذا الحدّ معه!

جمَّع الجسد المتأرجح قوته، وكأنه يحـاول عكـس مجـرى سـيول الـدماء الغزيرة لتعود إلى منابعها. للحظات تـمُّ لـه ذلـك؛ تمـسّك بـصحوه جيـداً، بفتات جسده، بعينيه اللتين تحوّلتا إلى ضوءين صغيرين في بحيرة دم جافة.

- هل تراني جيداً؟

- ...

التفتَ الجنرال إلى أحد مساعديه: ألا ترى أنه غير قادر على فتح عينيـه، ساعده في ذلك!

تناول المساعد سطلاً من المياه، دلقه فجأة. تناثرت المياه مخلوطة بالدم. لم يستطع الجنرال تفـادي قطـرات مـاء حمـراء اسـتقرَّتْ عـلى كتفـه الأيـسر، وانساب بعضها على نياشينه.

تجرَّع الجنرال غضبه مثلما يتجرّع كأساً من زيت الخرْوع.

صبّ الجسد الصغير المُعلّق في سقف الغرفة كل حواسهِ في قطرات الدم التي احتلت النياشين. كان ثمة قطرة لم تجفّ، تتـأرجح عـلى الجـزء المعـدني المُذهَّب من أحد النياشين، تتأرجح، تتأرجح..

حدّق في ما يبعثه الدّم من ضوء.

***

لم يكن سعد قادراً على احتمال تلك الكتلة البشرية الهائلة رغـم امتلائهـا بالطيبة: جسد رفيقه. الجراح تنـزّ، يعـبر الـدمُ الـضمادات، بقعـاً صـغيرة في البداية، دم مـضيء لم يطفئـه الغبـار المـتراكم عـلى الـضماد. للحظـة، باغتـه إحساس بأن الجرح سـيدل علـيهما، فهـو النقطـة الوحيـدة المـضيئة في ليـل الصحراء، ولكن هل ألقوا القبض عليهما بعد أن كشفهما الجرح فعلاً؟!

تذكّر: *كان الجرح فضيحتها والرداء الوحيد الذي يسترها*. هكذا كانت مريم في "طفل الليلة الطويلة" والجنرالات حولها. للحظة تمنـى أن يقـع في

كمين؛ تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن يتمّ بها إنقاذ حياة رفيقه الجريح.

وقعا في معسكر، وليس في كمين فقط! ولم يكن للأمنية يد المعجزة لتتحقق. *"كانت جراح مريم، فضيحتها، والرداء الذي يسترها"* .

***

أحد مساعدي الجنرال كان يمسح وجه سعد، يبدو أن الجنرال أشار عليهم بذلك. لا بدّ أنه أعاد اسطوانة الأب الحاني حيث تفجرت فيه عاطفة الأبوبة! فجأة. أبتسم سعد.

– جميل أن أراك مبتسماً. التفتَ إلى مساعديه، أنزلوه من فضلكم، وأرجو ألا تعيدوا الكرّةَ معه، أنا شخصياً أحميه، سعد لي، أليس كذلك يا سعد؟!

يَحلّون حبل السُّرة الموصول برحْم الموت، يتكوّم على أرضية الغرفة.

– *يجب أن أقف.*

يحاول الوقوف، يبتسم الجنرال.

– حاول يا سعد، حاول.

كان أشبه بطفل ينهض كي يخطو خطواته الأولى.

– نحن نعرف يا سعد أنك قادم من وراء الحدود. لقد قمتَ بإيصال السلاح إلى هناك و...

– لا.

– قمت بتنفيذ عملية؟

– لا .

– *ما دام يسأل فمعنى ذلك أن إسرائيل لم تعلن عن العملية.* همس سعد لنفسه.

شمس جديدة سطعتْ في عينيه، أدرك أن العملية كانت ناجحة أكثر مما يتصور! إنكارهم لوقوعها حتى الآن دليل أكيد على نجاحها؛ يبحثون عن مَخْرَج للإعلان عنها، بعد ترتيب أوضاعهم وصياغة الكذبة بصورةٍ جيدة.

- السلاح، من أين حصلتم عليه؟

- لم ألمس سلاحاً في حياتي.

- والمسدس، والجرح؟!

- لا أعرف عنهما شيئاً.

- تقصد أن القصة كانت سلاحك الوحيد؟!

يضحك مساعدوه، ينتشر جو من السّخرية اللاذعة، يلجمه الجنرال ثانية.

- تستطيعون تقديمي للمحاكمة بسبب حيازة قصة في جيبي!

- نحن لا نقدم أحداً للمحاكمة بسبب قصة، وما اسمها؟ آه "طفل الليلة الطويلة"! امرأة في قصر المؤتمرات، صحافة، أضواء فلاشات، طفل، وجنرالات! من هم هؤلاء الجنرالات يا سعد، إذا لم يكونوا جنرالات إسرائيليين؟

صمتٌ.

- أنت عطشان الآن يا سعد، أليس كذلك؟!

- لا.

- مُتعَب؟

- لا.

- جائع؟ مرّ يومان بلا طعام!

- لا.

تصاعد غضب الجنرال، تقيأ كاس زيت الخرْوع: ما الذي كنت تفعله إذن في تلك البقعة التي قُبض عليك فيها مع ذلك الثور الجريح؟

- لا شيء.

- تتنزه مثلاً؟

- ...

فكَّر الجنرال: *شخصية مُغلقة لا يفكّ رموزها غير سحقها تحت نعل ثقيل.*

***

أحد المحققين كان قد صعد إلى مكتب الجنرال مُتعباً، فاقدا كل إحساس بإمكانية انتزاع اعتراف، كان يود أن يحفظ ماء وجهه كمحقق. ولكن كيف؟!

قال للجنرال: أساليبنا لم تُجد! لعلّه يقول الصّدق!

انفجر الجنرال: أُرسلك للتحقيق معه فترجع إليّ منهاراً! تنهار أمام طفل! هل، هل كان يتنزه في الثالثة صباحاً بذلك المسدس؟!

تراجع المحقق: إنه نواةُ حبة زيتون سيدي.

- اسحقها إذن.

- سحقناها، ولكننا لم نجد فيها شيئاً!!

عاد المحقق إلى الزنزانة، بدأ فصل شرس جديد من الضرب.

قال المحقق للجلادين: هذا الجسد ساحة معركتنا. يجب أن ننتصر!

***

كانا قد تجاوزا الحدود. نقطة اللقاء محدّدة وواضحة، مزرعة برتقال تفصلها ثلاثة كم عن جنوبي المعسكر. استعرضوا الخطة للمرة الأخيرة، ثم ابتدأ التنفيذ فوراً.

كان هناك اثنان من المقاتلين ينتظران، أصبحوا أربعة، سعد يقود العملية كاملة، أما عند العودة، فتنقسم المجموعة إلى مجموعتين مثلما كان الوضع قبلها. مقاتلا الدّاخل، يتوجّهان إلى الداخل، وينسحب سعد وخالد عبر الحدود ثانية.

أرض المعركة كانت أمامهما على الخارطة. المعركة كانت متقنة على الورق! فرص النجاح تقلع نظرة النّحس من عين زُحل. عبروا الليل عند منتصفه، ليلاً فلسطينياً شاسعاً وهادئاً فوق بيارة برتقال. النهار كان اختفاء في رائحة زهور الليمون الصاعدة على جوانب المزرعة، حصار طيب، يشرعُ الصّدر ويسكن الخلايا. زحفتْ الساعات بطيئة كعادتها حين تخفق في الأفق البعيد لحظة حاسمة مُنتظَرَة.

سعد، خالد، عبد الرحيم، ميشيل.

أعاد سعد شرح الخطة، المجموعة تنقسم إلى مجموعتين: سعد وميشيل.. الاقتحام، خالد وعبد الرحيم .. الانقضاض الناري الثاني.

تجازوا حدود البيّارة. نقطة اللقاء ستكون فيها بعد الانسحاب. السلاح: أربع بنادق أوتوماتيكية.. اثنتا عشرة قنبلة يدوية.. ألف طلقة.

تقدّم الليل، الهجوم في الواحدة. تكون الفرصة قد أعطيت كاملة لخدَر الحرس. حارسان أمام البوابة. حارس في البرج الصغير عند الزاوية الشمالية الشرقية المرتفعة. خمس خيام منتصبة على طول الضّلع الطويل للمعسكر. ساحة في المنتصف للتدريب الصّباحي، وعدد من العربات العسكرية.

زحف عبد الرحيم.

كان الحارس يدور في البرج. إصابته كانت سهلة: بعيد عن الأرض، فكّر خالد: *البندقية جذوره المعلّقة في حلكة الليل.*

الأرض كانت جسد خالد في تقدّمه، هكذا أحس؛ الأرض كانت مرونة التسلّل الرشيق لسعد وميشيل باتجاه البوابة الرئيسية للمعسكر حيث يقف الحارسان.

أهدافهم كانت في عيون بنادقهم. خالد ربض في منتصف الضلع الشرقي للمعسكر. ثلاث صليات انطلقتْ في الوقت نفسه، سقط بعدها جنديا الحراسة وجندي البرج.

تقدّم عبد الرحيم أكثر واختار النقطة المرتفعة في الزاوية الشرقية؛ مهمّته وخالد أن يربضا مترقِّبَين؛ في حين اندفع سعد وميشيل عبر البوابة. النيران يجب ألّا تتوقف ثانيةً واحدة. تقدّما في زاوية تسمح لهما بالسيطرة على كلّ الخيام. أربع قنابل صوب السيارات العسكرية. ليل يشتعل، يتقاطع ظلّ الواحد منهما مع الآخر في لهيب النار المتصاعد.

كان يجب أن تتمّ العملية، وكأن عدد المهاجمين يفوق الجنود أضعافاً، انقضاض، وعملية تمشيط كاملة.

جندي يخرج من الخيمة الوسطى زاحفاً، يُطلق النار بصورة عشوائية. الأرض تشدّهما نحوها، ينبطحان. جندي آخر يطلق النار، صارخا بين الفزع وبين الهياج. قنبلة أخرى. دخول الخيمة الوسطى إلى قبضة اللهب الذي يمتدّ بسرعة إلى بقية الخيام..

ثلاث دقائق ونصف الدقيقة، زمن الهجوم. انسحاب سريع للمجموعة المهاجمة. ثلاث دقائق، ثم تنسحب المجموعة الثانية.

تدافع بعض الجنود، المهاجمان ابتعدا، إطلاق نار مجنون يترك مخازن أسلحتهم فراغاً. كأنه الكابوس، لا أحد.

في تلك اللحظة بالذات، اللحظة التي تكثّف فيها الصمت: ساعة الصفر الثانية. يبدأ الانقضاض الناري لمجموعة عبد الرحيم وخالد. الأهداف واضحة في ضوء النيران.

والمفاجأة كاملة في المرة الثانية مثلما كانت في المرة الأولى، ثم انسحاب سريع. ولكن كل تلك النيران لم تمنع انطلاق هبّةَ رصاص مُحكَمةٍ باتجاه خالد أثناء انسحابه.

في البداية اعتقد أنه ارتطم بغصن جاف، واصل انسحابه، لا ألم، وبالسرعة المطلوبة التي لا تتركه خلف عبد الرحيم واصل هرولته عبر الحقول.

اختلط الدّم بالعرق.

في المزرعة التقى الأربعة ثانيةً. عناق سريع في ساحة حرب. قال خالد: أنا مصاب.

لم يستطع أحد تحديد حجم الإصابة. خالد قال إنها بسيطة، لا أشعر بها. ولكن الطلقة كانت قد عبرت من الناحية الخلفية للفخذ وشقّته من الأمام.

القيام بالعملية وإيصال السلاح، تلك هي المهمَّة؛ إصابة عصفورين بحجر واحد.

- تستطيع السير؟ سأله سعد بعد أن تمّتْ عملية إسعاف سريعة كيفما اتفق.

- أستطيع الطيران!

- لو كنتَ أخف وزناً!!

ضحكوا.

ميشيل وعبد الرحيم توجّها غرباً، سعد وخالد شرقاً، ونقطة اللقاء والانطلاق بيارة برتقال.

***

يعمّ الصمت.

تبتعد المعركة، يسقطُ سعد في غيبوبة ما، تعيده لصحوته كلمات حازمة.

- هذا الجسد ساحة معركتنا.

قالها المحقق، وصعد الدّرجات.

الساعة تقترب من السادسة والنصف مساء.

الأنيق يسأل، والأنيق يجيب! تعـذيب لم يتوقّـف طـوال يـومين. ضربٌ تجويعٌ، تعطيش بلا نوم. وأسئلة لا تنتهي..

غارقاً في البقع السّود على أرضية الغرفة، وجد أحمد نفسه، يبدو أنه تقيأ، حاول أن يعتدل، كان ملوّثاً تماماً، غير قادر على الوصول إلى قدميه، إلى ساحة نظيفة يتعلّق بها، أو إلى يديه ليدفع بهما الأرض محاولاً الوقوف! زحف على أربع. اكتشف بركة صغيرة تحته. ملابسه مبتلة. شقَّ الباب، ضوء الشمس يغالب العتمةَ في لحظات اندحارها الأخيرة.

وقعت عيناه على ملابسه، البقع السّود تفترشها. تحامَل على نفسه مستنداً إلى الباب، مضى إلى المغسلة. فِتْنَة نائمةٌ، كذلك الصغير.

خلعَ ملابسه في البداية، ثم أشعل الضوء. ارتجف، البقع السود تغطي جسده أيضاً.

حاول أن يستحضر ملامح أُمّه، لم يستطع. بقعة سوداء ابتلعتْ مخيلته، عَبَرَهُ إحساسٌ مفاجئ بأنه لقيط.

- لو كنتُ غير ذلك لاستطعت تذكّرها!

اندلق حبل الماء البارد المجنون فجأة. غسل صدره، ذراعيه. الماء أكّد له أنه خارج حدود الكابوس، لكنه لم يستطع محوَ بصمات الكابوس عن جسده.

بقعٌ سود انتشرتْ مُحتلةً جسده بمساحات متفاوتة. بلل المنشفة، مسح الحبرَ عن ساقيه، لم يُجدِ ذلك. انتابه جنونٌ. تفجّرتْ القوةُ فيه. كان يريد محو البقع بأسرع وقت ممكن.

راح جلده يتسلّخ، والسواد ظلّ سواداً. تذكّر برعب أنه كان مستلقياً في بحيرة صغيرة من سائل لزج. أدار ظهره باتجاه المرآة، كتَمَ صرخة أوشكتْ أن تنفجر وتُخلِّفه صدى! ثلاثُ بقع حالكة تحتلُّ ظهره، وبقعة كبيرة تحتل مؤخرته! انطلق فُتات من صرخة مكتومةٍ، جاء الصوت مستفسراً: أحمد؟!

ركض باتجاه باب الحمام.

من شقِّ الباب خرج صوته: نعم، نامي؟!

لملم ملابسه. تجسّد العري بكامل فضيحته. كوّر الملابس، زجَّها في زاوية الحمام. لم تبق فيه مساحات بِيضٌ سوى كفيه ووجهه، أما بقية جسده، فكانت مبرقعة بالأسود. عبأ صفيحة بالماء دلقها على صدره.

الماء البارد والصباح.

حاول ثانية. العبثُ هو المحاولة، حكَّ ظهره بالحائط. ارتفعتْ صيحات طبول الجنون في جوفه. حكَّ مؤخرته بأرضية الحمام، حدّقَ: لا جدوى.

أطفأ الضوء. لم يعد قادراً على رؤية جسده. اختلط بالظلام، أصبح قطعة منه.

عَرَقٌ حارّ يُشعل قطرات المياه الباردة.

شقَّ باب الحمام، خرجَ متسلّلاً مُخلِّفاً ملابسه.

كانت فتنة قد عادت إلى النوم، تناول قميصاً ذا أكمام طويلة، وبنطالاً، عاد إلى الحمام.

- *الحبر لا يزول بسرعة، ولكنه يزول أخيراً.* طمأن نفسه.

ارتدى ملابسه النظيفة. بحثَ عن كيس من النايلون، زجّ فيه الملابس الملوّثة؛ زجّها كما لو أنه يخفي ملابس جريمةٍ غارقةٍ في دم أسود.

أشرع البابَ. غادر المنزل. في الضوء الشاحب حدّقَ متفقِّداً ما تبقّى من مساحات بيض في جسده. سرّه أن البقع اختفت خلف القميص ذي الكمّين الطويلين، والبنطال. أطلق خطاه صاعداً من مجال الكابوس، انعطف إلى شارع جانبي؛ يعرف، ثمة حاوية للقمامة فيه، رآها، اندفع باتجاهها. لاحظ أنه يركض، حبس الخطوةَ في رتابتها المعتادة. تلفَّتَ، لم يرَ أحداً، ألقى الملابس بسرعة داخل الحاوية، في تلك اللحظة انفجرتْ بقعة سوداء داخلها: قط أسود اندفعَ بقفزة عالية.

تراجع للوراء أشدّ فَزَعاً. أعاد النظر إلى أجزائه، ليس ثمةَ آثار تظهر من خلف الملابس. عبَرَ الشارع باتجاه محطة الحافلات. الخامسة والنصف صباحاً، الحركة تعمّ الساحة الواسعة، كان الناس يبدأون رحيلهم اليومي لانتزاع لقمة الخبز من لهب آب.

صعدَ درج الحافلة.

على غير عادته، لم ينظر حوله. عيناه في الأرض. كان الطاووس عارياً من زهوه.

- أستاذ أحمد، صباح الخير.

- صباح الخير.

- أراك مبكراً اليوم!

- عمل!

حدّق بين قدميه، محاولاً الابتعاد عن النظرات، وهناك باغته قط أسود ينظر إليه بخبث. ارتَعَبَ.

العالم حولنا يتطوّر، هكذا قيل لي، هكـذا نـصحني مـن يهمّـه أمـري، ويهمّني أمره! صحيح أنك الجنرال، ولكـن، لم يعـد هنـاك وجـود لأبـواب مُغلَقة في هذا العالم، لأن العالم اليوم بأبواب كثيرة، لا يستطيع أحـد امـتلاك قوة سحرية على إغلاقها جميعاً.

نعم يجب أن نجد مساحة مشتركة نتواجد فيهـا، نحـن وهـؤلاء الـذين يسمّون أنفسهم مثقفين! بذلك تتغير صـورتنا، وحيـنها تختفـي هـذه البـؤر الفاسدة التي تسمِّي نفسها معارضة! نكون قادرين على أن نواجه العالم بعين أقوى، بعين الديمقراطية! صـدرنا رحـب لنـدفنهم فيـه! هـم وتطلعـاتهم! وليأخذوا ما شـاؤوا: بعـض المكاسـب، الـصغيرة، لـيكن! أن نـسمح لهـم بمناقشتنا، ليكن! أن نشعرهم بأننا نسمعهم، ليكن! وقيل لي: تذكَّر دائما، أن كل ما ستفعله بفسحة الديمقراطية هذه، هـو أنـك سـتعيد نـشر الأجهـزة الأمنية على المؤسسات المدنية، وبذلك ستستطيع أن تُقرّب من تشاء وتُقصي من تشاء، وتغني من تشاء وتجـوّع مـن تـشاء، وتُعـلي مـن تـشاء وتخـسف الأرض بمن تشاء، دون أن يجرؤ أحد على أن يكتب أو يقول إنك تـستخدم أجهزتك الأمنية في كل كبيرة وصغيرة.

وقيـل لي: لا بـأس بـبعض الحريـة، تـزّين بهـا الواجهـات العريـضة لمؤسساتك! لا بـأس – حتـى- بـبعض الديمقراطيـة. انتخابـات، ولـتكن شكليّة إذا لزم الأمر.

قلت لهم: أما هذه، فلا. نعم لا يمكن أن أُلدَغ من جُحر واحد مرتين.

وتذكّرتُ، وسأبقى أتذكر تلك الحادثة المُهِينة:

كنت في المدرسة الثانوية، في الصفّ الأخير، وتقرر انتخاب رئيس لمجلس الطلبة فيها. لم يكن هناك سوى متنافسَين فقط؛ وحين بدأ الطلبة يُلقون بأوراقهم في الصناديق، وقفتُ، وأوصلتُ الديمقراطية إلى حدٍّ لم تكن تحلُم به! أمسكتُ ورقتي ورفعتُها أمام الأعين، وقلتُ: أما أنا فسأنتخب منافسي! وألقيتُ الورقة لتختفي بين مئات الأوراق. كنت واثقاً بالفوز. وحين بدأ الفرز، حين انتهى، لم يكن مقابل اسمي على اللوح الأسود سوى إشارة واحدة. واحد فقط أعطاني صوته! واحد، هو ذلك الذي أصبح فيما بعد مساعدي الخاص. كان صديقي الوحيد، وكان أضخم من الآن بكثير. لم يكن لي سواه، أطلقوا علينا لقب: العاشقَين، ولكن الذي تجرأ على ذلك هشّمناه.

قلت له: لماذا أعطيتني صوتك؟

قال: كنت سأنكشف لو لم أفعل ذلك!

قلت له: إذن كان الأمر واضحاً لك.

قال، نعم.

قلت: سأقتلك يوماً ما بطريقة تُشفي غليلي، وإلى أن أجدها ستبقى بجانبي!!

وقلت لهم: أما الانتخابات فلا. كل شيء، إلا هذه! ولكن كان علي أن أقبل بإجرائها في النهاية!

***

- أحضروه إليّ فوراً.

استرق أحمد الصافي نظرة، تأكد للمرة الأخيرة من أن ملابسه لا تُفصح عن أيّ شيء تحتها. ولكي يَطْمئنَّ أكثر، قام بإغلاق الزرّ الأخير لرقبة القميص، فبدا أشبه بشخص مشنوق.

حين شاهده، أدرك الجنرال، أنه ليس أحمد الصافي ذاته الذي قابله من قبل.

وقفَ، صافحه..

في الغرفة كان خيط طويل من الضوء ينتشر محاولاً أن يُكَوِّن مساحةً بحجم الشُّباك الصغير؛ سطوعه المتصاعد كان يزيد من وضوح ظلال القضبان الحديدة للشُّباك.

مرتبكاً كان أحمد، إلا أنه راح يستعيد أنفاسه بفعل الفترة الزمنية الطويلة التي كان الجنرال يتحدّث فيها دون توقف، دون أن يلتقط كلمة واحدة من كلماته.

مساحةُ الصمت في الكلمات المبعثرة للجنرال تركتْه يتذكّر تلك اللحظة المفاجئة في "طفل الليلة الطويلة" حين شقَّ الطفل الضوءَ والجسدَ الملقى مُعْلناً الدّهشة التي ستتحوَّل بعد ثوان إلى فَزَع يغمر المكان وهو يهبط عن الطاولة المستديرة التي سُجِّيتْ عليها مريم بكامل جراحها.

- أنا " طفل الليلة الطويلة" . شابٌ خجولٌ يقتربُ منه شاقاً صفوف الجمهور المحتشد في القاعة الضيقة، يناوله ورقة بيضاء، ينسلّ خارجاً..

- أنا طفل الليلة الطويلة! لماذا لا أكون أنا أيضاً طفل ليلتي الطويلة؟ هل أنا ابن الليلة الطويلة فعلاً ؟ عاوده الإحساس مرّة أخرى بأنه لقيط. *أتراني كنت أبحث عن أُم لي حين كتبتُ القصة؟! كيف نكون طفلَيّ ليلةٍ واحدةٍ، وأمه مريم، وأمي الليلة الطويلة؟! أُمّان، واحدة للكاتب، وواحدة للطفل! لماذا لا أكون أنا أيضاً ابن مريم؟ أنا ابنها، نعم أنا ابنها، القصة قصتي، كتبتها، ولي أن أُفصِّلها كيفما أشاء!*

وجدَ القشةَ الصلبة التي يمكن أن يتعلّق بها غريق، عَبَرَه إحساسٌ مفاجئ بالقوّة.

اندفعتْ صرخةٌ من القبو، من عمق الأرض، احتلّتْ ذرات الهواء، بقعةَ الضوء المقطّعة بظلال القضبان.

لم يكن قد سمع شيئاً بعد مما قاله الجنرال.

دخل المساعد الخاص، اقترب من الجنرال: أعتقد أنه سيموت إن لم نتوقّف.

أشار إليه الجنرال أن يقترب أكثر، همس في أُذنه بكلمة واحدة انطلق بعدها مسرعاً، ولم تعد الصرخة تُسمع ثانيةً.

اعتدل الجنرال. ألّمتْ به رغبةٌ في الدّوران. راح يذرع الغرفة، التفتَ إلى أحمد، توقّف كمن بوغِتَ بجثة.

- أستاذ أحمد، قرأتُ مقالك هذا الصباح، مقال جيد! ولكنك ما زلت تكتب بنفس الطريقة التي كنتَ تكتب بها! كنتُ آمل أن تغيِّر بعض قناعاتك بفعل حوارنا السابق.

حاول أحمد أن يتذكّر أي حوار في المرّة الأولى، فتذكّر أن الجنرال وحده هو من تكلَّم، وتذكَّر الصرخة التي انطلقت قبل لحظات، ثم: سيموتُ إن لم نتوّقف!

- هل ثمةَ تهديد مباشر؟ غير مباشر؟ أم أن هناك واحداً يطأ الموتُ أطرافَ روحه في هذه اللحظة؟ من يكون؟ لماذا؟ أم أنها خدعة؟! هي خدعة، لا شكّ.

الهدوء كامل، سوى أصوات السيارات التي تصل ضعيفة من الشارع المحاذي للمبنى.

- إن مقالاً مثل مقالك الذي طالعته اليوم، يمكن أن نناقشه بيننا، فبدل أن نكتبَ! بدل أن ننشر غسيلنا الوسخ على الحبال، ونتركه مُعلَّقاً! نستطيعُ مناقشة الموضوع معاً، بهذه الطريقة فقط نتوصّل إلى حلّ لمشاكل "البلد"! هذه الدعوة التي أوجّهها إليك الآن ولغيرك، لا تعني أننا غير قادرين على

معالجة أي وضع يجدّ هنا، ولكنهـا تعنـي شـيئاً واحـداً، أننـا لا نريـدكم أن تكونوا هامشيين!

- حين أكتب أطرح تصوّري لمشكلة ما، أشرحها، وليـستْ مهمتـي أن أطرح الحلول كلّها، لأنني لا أمتلك أدوات التنفيذ، فأنا في النهاية...

قاطعه الجنرال:

- هذا ما أردتُ قوله تماماً! إن بُعْدَكم عنّا يفقدكم أدوات التنفيـذ! آليـة التنفيذ! ولأعترف، إن غياب بعض العقول المستنيرة، وبُعْـدها عنّـا سـببٌ مباشر، أحياناً، في وقوعنا في بعض الأخطاء! بمعنى أنكم تتحمّلـون نتيجـة أخطائنا!!

- كنتُ أريد القول إنني كاتب في النهاية.

ابتهج الجنرال فجأة، كمن يوقعُ عصفوراً في فخ: لا تقـل لي هـذا! لأنـه يعني شيئاً واحداً، أنك تحلم لا غير! لا شك أنك تـتقنُ حرفـةً أخـرى غـير الأحلام، أليس كذلك؟!

كعادتها، حين تصحو تُلقي نظرة سريعة حولها في غرفة النوم، ثم تخرج إلى المطبخ فتُلقي نظرة أُخرى، تتوجّه بعدها إلى المكتبة، تلقي نظرتها الأخيرة قبل أن تمضي إلى المغسلة؛ لكنها عندما وصلت إلى المكتبة وقفتْ بقامة صنميّة، تحدِّق في فراغ هاويةٍ لا يدركها النظر! كان اللون الأسود يغطي الأرضية، يُلطِّخُ الرّفوف، ويدفع الكرسي المقلوب إلى عمق الزاوية التي تحوّلت إلى ما يشبه الكهف.

تجرَّأتْ، دخلتْ، حاولتْ تلمُّسَ ذلك الليل المندلق على كل شيء.

هل هو الليل، ينسى قطعةً من جسده في غرفة بعيدة في أطراف الضواحي، ويرحل؟! كان هذا وحده التفسير اللامنطقي الذي يُصدَّق. كانت تريد أن تتأكد مما ترى. امتدّت أصابعها تتحسّس الجثة المجبولة بأسئلة الفَزع الأسود. تجاوزتْ فوضى الطاولة، على طرفها، كانت المحبرة فاغرة عينها الوحيدة، شفافة كأنها غُسلتْ جيداً. للّون الأسود رائحة، فجَّرَها احتكاك حذائها المنزلي بالأرضية. إلى الرّفوف صعدتْ عيناها، مذبحة غريبة، الخشب ملَّطخ، والكتب التي رُتِّبت بفوضى فوق بعضها بعضا: *كيف؟! لكن، ما الذي حدث؟ الليل، أحمد يأتي متأخراً، ململةٌ الصغير في السرير.*

تذكَّرت الصغير. استدارت، كان يقف خلْفها عند الباب دهشاً، صامتاً، غير مدرك لشيء، ومن يستطيع أن يفهم هبوب الخراب على غرفة ضيقة في ضاحية منسيّة. الأسئلة تطلّ برؤوسها الصغيرة من داخل

التفاصيل، صار لخطواتها الصغيرة وقْعٌ معدنيّ قاتل، حاولتْ أن تطلب من الصغير أن يظل بعيداً عن دائرة الوقت السوداء التي تنشر ثوانيها وتُطلِقها مثل رؤوس سهام وحشية. لم تخرج الكلمات.

***

بعد خمس سنوات من الزواج، كانت تريد أن تقول له إن حياتها سوداء، كما لم تكن في أي يوم، سوداء مثل بحر من الحبر، أو بيضاء مثل صحراء ثلجية، لا فرق.

كانت ترى ما لا يُصدَّق. انحنت، مدّت يدها، أمسكتْ بكتاب رفعته بيد مرتعشة، فتحتْه، ضربت أجنحة بيضاء كفّيها، وأعقبتها عاصفة من الريح التي ولَّدَها خفقان الأوراق المجنون، ارتدَّ رأسها إلى الخلف في حركة عفوية، اندفع الكتاب باتجاه صدرها، صحراء بيضاء أُخرى، وريح. كانت تأوي إلى نفسها، يأوي الكتاب إليها.

هدأت العاصفة. عادت، حدَّقتْ في الكتاب، بسطتْ يديها، فتحتْه من جديد، بياض، بياض، بياض، بياض..

كان السواد والبياض يتبادلان تأدية دور الرعب، وهما يعلنان تناقضهما، يعلنان تداخلهما، انفصالهما.

امتدّت يدها، ثانية، إلى أحد الرّفوف، تناولتْ كتاباً، قدَّرتْ للحظة أنها قرأته، رواية، قلَّبتْ صفحاتها بسرعة، لا شيء يؤكِّد أنها قرأت هذه المساحات المطفأة الجرداء الصقيعية.

هل هو الكابوس، يغادر الإغفاءة ليشقَّ هيبة الصحو، ويتركها ذابلة؟! جاء صوت ابنها: ماما! انتشلها من بئر، استدارتْ إليه، حملتْه، خرجتْ، تاركة للأسئلة حرية الانفجار وتدمير ذلك الدمار خلفها.

- اتّضح الأمر، لقد وصلنا التقرير الكامل سيدي، قال مساعد الجنرال الذي دخل مُسرعاً، دون أن يطرُق الباب.

اقتربَ المساعد أكثر، ناوله ملفاً، همس في أذنه. انقلبتْ سحنةُ الجنرال، ضرب، وصرخ: خذوه.

ارتبك أحمد الصافي.

ماذا حدث؟ وماذا تعني خذوه الصاعقة هذه؟ إلى أين؟! هل التقرير يتعلق به شخصياً؟ أم أن هناك أمراً خطيراً لا يعرفه، لا علاقة له به؟!

قبل أن يبلُغا الباب، صرخ الجنرال: أعدْه إلى القاعة، دعه ينتظر.

تنفّس أحمد الصافي، ليس هو المقصود إذن، "دعه ينتظر" غير "خذوه"! غيرها تماماً.

***

التقرير الإخباري

أذاع راديو "إسرائيل" في الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم. خبراً مفاده أن مجموعة من "المخربين" عبرت الحدودَ وقامتْ بتنفيذ عملية عسكرية ضد حافلة مدنية للرّكاب قرب أحد معسكرات الجيش. وقد هبّ جنود المُعسكر إلى مكان الحادث، وأسفر الهجوم عن مقتل جندي وإصابة خمسة آخرين وتم إنقاذ ركاب الحافلة. وقامت قوات الجيش بتتبّع آثار "المخرّبين" حيث تأكد لها أنهم غادروا الحدود إلى الخارج.

وصرّح ناطق رسمي باسم وزارة الدفاع أن الوزارة تحمّل الدولة التي عبر المخربون من أراضيها كامل المسؤولية، وأنها لن تقبل أن تكون حدودها، معها، أو مع غيرها، منطلقاً لعمليات تخريبية ضد الأهداف المدنية والمواطنين الآمنين.

***

طلب مساعدو الجنرال، وحرّاسه الذين عادوا للظهور، من العاملين في الصحيفة عدم إصدار أيّ صوت من الممكن أن يعكّر صفو الجنرال؛ إلى درجة أحسّ معها الجميع بأن هذا الهدوء لمصلحة الوطن!

التزم العاملون في الصحيفة بحبِّ الوطن، كما لم يلتزموا في أيّ يوم مضى! فجأة خَلَتْ ممرات الطابق الأول من مبنى الجريدة، اختفى الصحفيون، والأذنة وموظفو الأرشيف. وكُتِمَت الأصوات الصادرة من غرفة الرّصد وتكتكة آلات استقبال أخبار الوكالات العربية والأجنبية، وتداخل الجميع في بعضهم بعضا، وعبروا دهاليز معتمة طويلة وتكوّروا هناك، كما لو أنهم في انتظار انتهاء غارة! وما لبث رئيس التحرير أن تبعَهم إلى الطابق الأرضي الموحش شبه المهجور دائماً.

لم يعد في الطابق الأول أحد غير الجنرال ومساعده الخاص.

كان الجنرال يبحث عن مَخرج، وحين اهتدى إليه، قام من فوره لتنفيذه. كان المَخرج يتلخّص في كتابة اعتذار عن العملية التي تمت عَبْر أراضيه، لخطورة المسألة، التي يمكن أن تنتج عنها غارات إسرائيلية انتقامية كالعادة، لا يريدها، ولا يستطيع إلا أن يُهزم فيها.

شخصياً قرر الجنرال أن يقوم بكتابة الاعتذار بنفسه، وأن يعطيه لإحدى الصحف لنشره في اليوم التالي كخبر مستقل، أو في المكان المخصص "لكلمة الصحيفة". حدّد الجنرال ما سيقوله، حصره بين دفتَي دماغه: التأكيد على حُسْن الجوار والالتزام بالهدنة، والإشارة إلى أن حالة السِّلم ستخدم شعوب المنطقة كلها، حيث لا يمكننا بأي شكل من

الأشكال إبادة شعوبنا نتيجة تصرّفات طائشة، وأن مستقبل المنطقة متوقّف على حجم السلام الممكن أن يسود فيها!

كل تلك الأفكار وغيرها، كانت المحاور الرئيسة التي سيعمل الجنرال على تنسيقها فوق أوراقه. إلّا أن التفكير في الشيء شيءٌ، وصياغته في جُمل مفيدة محدّدة شيء آخر. هذا ما أكتشفه.

نظرَ إلى ساعة الحائط، كانت تقترب من العاشرة صباحاً. لديه وقت طويل، ولكنَّ المسألة لا تحتمل التأجيل.

***

فور قراءة التقرير، طلبَ الجنرال كلّ مساعديه. تباحثوا في أفضل وأنسب الطرُق للردّ على التهديد المُبطَّن.

هل يتم الأمر بإذاعة بيان رسمي، استبعد ذ لك لحساسية الموضوع، فهو لا يريد للعملية طنّةً ورنّة! لا سيما بعد موت أحد المعتقلين. هذه مشكلة لم تحلْ بعد.

وللحقيقة، لم يترك لصاحب الاقتراح مجالاً ليكمل اقتراحه.

اقتراح آخر، من محقق لزج يكاد جسده أن يتحول إلى سائل، كان كتابة اعتذار وتسليمه لضابط الهدنة، إلّا أن الجنرال كان مقروصاً من الوثائق، فالكثير منها استُخدم في كتب أصبحتْ من الفضائح الكبرى، أصدرتها الجامعة العبرية وغيرها، بعد مرور ثلاثين سنة على تاريخ الوثيقة كما هو معروف، ومعمول به دولياً.

اقترح أحدهم وكان ضئيلاً إلى درجة أن الإنسان يحتاج إلى وقت طويل قبل أن يعرف مصدر الصوت، ويرى صاحبه بوضوح! اقترح إرسال مبعوث يعتذر في لندن أو أي عاصمة أوروبية بسريّةٍ، بعد أن تكون السفارة الأمريكية قد نظّمت الموعد.

فكّر الجنرال بالاعتذار مباشرة إلى السفارة الأمريكية لأن ذلك يكفي، إلا أنه تذكر بعض حوادث سوء الفهم الماضية المشابهة لحادثة عبور الحدود هذه، وتذكّر ردود الفعل المؤنبة القاسية! فلم يُصرِّح بفكرته.

حانت منه التفاتة سريعة إلى الساعة. طلب من مساعده الخاص تشغيل جهاز الراديو، لكي يسمع الخبر من نشرة الإذاعة الإسرائيلية المعتادة. يسمعه بنفسه.

تصاعدتْ دقات الساعة، احتلَّتْ طاولة الاجتماعات، حلكة اللون البُنيّ للطاولة والمقاعد، راح الترقّب يحتل مسارات دمه، انتصبَ. دار حول الطاولة، جاءت دقات ساعة الراديو، اختلطتْ بدقات ساعة الجنرال في توافق عجيب.

كان عليه أن ينتظر إلى ما لانهاية، قبل أن يسمع الخبر! لعبة إعلامية، للإيحاء بعدم أهميةِ خبرٍ مهم، تقوم بها كل الإذاعات ويفهمها الجنرال جيداً! تسمَّرت العيون على جهاز الراديو كما لو أنه تلفاز، ازدادت لزوْجةُ اللزجِ، لم يعد الضئيل يظهر فوق مستوى الطاولة، وأتى صوت المذيع واثقاً وجدِّياً:

(أفاد مراسلنا العسكري، أن مجموعة من "المخربين" عبرتْ الحدود وقامتْ بتنفيذ عملية عسكرية ضد حافلة مدنية للرّكاب قرب أحد معسكرات الجيش. وقد هبّ جنود المعسكر إلى مكان الحادث، وأسفر الهجوم عن مقتل أربعة جنود وإصابة تسعة آخرين، خلافاً لما جاء في نشرتنا الصباحية الأولى، وتم إنقاذ ركاب الحافلة!

وصرح ناطق رسمي باسم "وزارة الدفاع...")

أدرك الجنرال أن الخطر قادم، فازدياد عدد القتلى يَحملُ معنيَين: إما أن ذلك حقيقة، وإما أن العدد رُفع لتبرير شن هجوم تأديبي على أراضيه! فجأة رأى مساعديه أمامه، كأنه يراهم للمرة الأولى، صرخ: هذا التقصير من يتحمّل مسؤوليته؟!

اختفى الضئيل تماماً وسرّه أنه وُلِدَ بهذه الضآلة، وهذا شعور ينتابه دائماً كلما التقى الجنرال غاضباً. وسال اللّزج عرقاً وفزعاً وتصبّب حتى تجمع عند قوائم الكرسيّ الذي يجلس عليه.

- من يتحمّل مسؤولية هذا التقصير؟ أنتم!

يغضب الجنرال فتغضب الدنيا؛ تصبح قاسية، سوداء، مفترسة. حاول مساعده للمنطقة الجنوبية -ولسوء حظه- أن يبدأ حديثاً، قاطعه الجنرال صارخاً: هذا كلام كان يمكن أن يقال قبل عشر سنوات أو عشرين سنة، وليس اليوم، أي هراء هذا!

- قواتنا غير كافية؟ قال مساعده الخاص مقاطعاً حمم الغضب.

نظر الجنرال إليه ببرود: وبعدين؟!

- العدو نفسه -سيدي- لم يستطع وقف العملية.

- تطالبني بأن أتوجّه إلى أمريكا إذن لأطلب منها تعزيز قوات الجيش الإسرائيلي بإرسال آخر وأفضل أسلحتها إليه؟!

صفَقَ باب القاعة، تركَهم، وتوجّه إلى مكتبه. اتصل بالسفارة الأمريكية، حاول أن يشرح لهم ملابسات العملية، وما نتج عنها.

قاطعه الصوت: نعرف ذلك منذ يومين.

- سنعتذر، سنعتذر في الصحف. كلّ ما في الأمر أننا نرجو منكم العمل على تطويق الحادث.

- نحن نحاول ذلك منذ يومين! ولكنني أحبُّ أن أقول لك إنكم تضعوننا في مواقف مُحرجة باستمرار، مع حكومتنا ومع صديقتنا، ما يحدث يشكك في معنى تقديم أية مساعدات لكم!

- أنتم تعرفون -سعادة السفير- أننا العين الساهرة!

- نعرف ذلك، ولكن هذه العين الساهرة كثيراً ما تغفو! وليس هناك مبرر أن نقوم بالسّهر عنكم، أو معكم! حاولوا من طرفكم إيجاد مَخرج، نحن نحاول.

انتهتْ المكالمة.

إنهدم الجنرال بين ذراعيّ مقعده. كان طوال المكالمة واقفاً.

رغم لهجة التأنيب القاسية هذه، إلا أن هناك ما يُطَمْئِن؛ على الأقل هناك طرف آخر يعمل على تطويق الموضوع، ومنذ يومين: *أصدقاء، أصدقاء فعلاً!*

رفع السماعة، وقد بدا أكثر راحة، تحدّث مع مساعده الخاص. طلب منه أن يصرف الموجودين.

صرفهم.

***

كان يكره الكتابة، ويحسد الكُتّاب.

العالم يتطوّر..! ومنذ زمن لم يعد يذكر بداياته. ظلَّ يستند إلى البندقية والأجهزة الأمنية، يعزز وجودها عقب كل خسارة، أو نكسة، أو هزيمة تلحق به. كان يتفسّخ شخصياً، ويتفسّخ كل ما حوله من أدوات، وكلما ازدادت الشروخ ضاعف كمية الهراوات في محاولته رَدْمها، وضاعف الضغط على الشارع وعلى الرصيف أيضا!

- *وفجأة يخرج عليك أحدهم يعبر الحدود ويُعكّر صفو كل شيء.*

كان قد تلقّى نصيحة بأن يستقطب أكبر عدد ممكن من المثقفين، يحاورهم في سبيل الوصول إلى لغة مشتركة.

قيل له: أنتَ لن تكون مُجبراً على الأخذ بكلامهم، ولكنك ستُضفي الطابع العلميّ على قراراتك وإجراءاتك! ولكنه تناسى ذلك حين رأى أنه لا يحتاج حتى لحرّاسه.

قال: أنت لا تحتاج للبوق، حين تمتلك المدفع.

ومنذ ذلك الحين ذهبتْ كلمتُهُ مَثلاً.

***

طالب مساعده بعدم إدخال أحد عليه، وعدم تحويل أي هاتف إلّا إذا كان الأمر يتعلّق بالقضية ذاتها.

حاول أن يكتب. كان يحتاج إلى بعض الوقت لتصفو أفكاره. حاول، لم يستطع. وللحظة عبرتْه فكرة: الجوّ هنا غير صالح للكتابة! أفضل جوّ مناسب لذلك، يمكن أن يكون، جو صحيفة.

***

تذكر أحمد الصافي، حين عَبَرَ غرفة مساعده الخاص، مساعده الخاص الذي انتصب كعامود خشبي، قال له الجنرال: اتبعني، وقل لهم أن يبقوا أحمد العكر هذا هنا، دعوه ينتظر!

***

ظلت الأوراق الملطخة بالحبر تتجمّع بجانبه، وعلى أرضية الغرفة، تماماً كما في المشاهد التي يعجز فيها بطل المسلسل التقليدي عن كتابة رسالة حاسمة إلى حبيبته. لم يستطع إحكام قبضة الحبر على جملة واحدة مما كان يفكر فيه، ظلَّت الكلمات حبراً، حبراً أسود لا غير.

تنبّه إلى أن هناك صوتاً يجيء من الطابق الأرضي، أدرك أنه صوت ماكينات الطباعة. كان القسم التجاري يعمل، أدرك السبب الذي يمنعه من الكتابة. صرخ. لحظة وكان مساعده الخاص بين يديه، لا ينقص المشهد إلا أن يهتف: "شبّيك لبّيك"!

- قل لهم أن يوقفوا ماكينات الطباعة فوراً، إن أصواتها تبعثر أفكاري تماماً.

هبط الدَّرج مسرعاً، ارتبك الصحفيون ورئيس التحرير.

في البداية اعتقدوا أن الموقف سينجلي عن مذبحة، لم يكن أحد منهم يفهم ما الذي يجري، ولماذا تُحتلّ الصحيفة هكذا دون سابق إنذار.

رئيس التحرير كان الأشدّ رعباً.

صرخ المساعد الخاص: أين الماكينات؟ وكان سيل الحرس المدجج بالسلاح يندفع خلْفه.

- تحتْ. أجاب رئيس التحرير.

صرخ: اتبعني.

تبِعَه متعثّراً.

عمّ الفَزع.

لم يفهم عُمال المطبعة ما يُراد منهم إلّا متأخِّرين. اختفى بعضهم في أيّ ثقب صادفه، التصقوا، وتبعثروا ثانيةً، ثم التصقوا.

أدرك رئيس التحرير حالة الفزع بفزعه الشخصيّ.

كان قرب المفتاح الكهربائي المركزي للمطبعة، مدَّ يده، قَطَعَ التيار الكهربائي. عمَّ الظلام، وسقط الصمتُ فجأة من كل مكان.

أدار المساعد الخاص ظهره، صعدَ الدّرجات، تبعه الحرس، ثم رئيس التحرير الذي كان يحاول اللحاق بهم دون جدوى.

وفجأة نظر المساعد الخاص لرئيس التحرير، همس: الجنرال يكتب!

***

تنفّس الجنرال، عبّ كميات من الهواء تكفي غابة في ليلة مظلمة، أحسّ أن الوقت قد غدا مناسبا للكتابة. إلّا أن ذلك لم يكن بالسهولة المتوقّعة! كانت القنبلة تصدر صوتها الرّتيب بدل دماغه.

كوّر الأوراق المتناثرة أمامه، بدأ يقذفها بعيداً، إلى أقصى ما يستطيع. كان يحاول إصابة الساعةِ وصوتِ القنبلة في رأسه.

مدَّ يده إلى يمين الطاولة، استلَّ رزمةً من الأوراق البيضاء. أدرك سبب إخفاقه فجأة: لقد كان يكتب على ورق الصحيفة الأصفر العادي. أفرحه البياض، سمعه يدعوه، بياض كامل، بدأ:

(السلام مطلبٌ إنساني أولا وأخيرا. توقَّف. فاتحةٌ قوية..)

و.. لم يستطع ربط الجملة بجملة تليها. كان عليه أن يدخل في الموضوع بصورة غير مباشرة. تذكّر أن أهمّ الصفات التي يجب أن تتوافر في المقال، أن يُوصل به ما يريد، وألّا يفهمه غير المعنيين بذلك، أن يعتذر فيه عن العملية دون أن يذكر العمليةَ ذاتها.

رمى القلم، دار في الغرفة الواسعة.

صرخ ثانيةً.

- حاضر سيدي، كان مساعده الخاص بين يديه.

- أحضر رئيس التحرير.

وقف رئيس التحرير أمامه جامداً يملؤه خوف غامض.

حاول الجنرال أن يشرح له شيئاً ليقوم بالكتابة بدلاً عنه، اكتشف أنه غير قادر على إيصال ما يريد.

حدث هذا منذ زمن، حين قام الجنرال بإلقاء كلمة في افتتاح مصنع ضخم للشوكولاته والعِلْكة، يعتبر الأول من نوعه في المنطقة! ألقى الجنرال كلمة حول أهمية المصنع للبلد والمنطقة، ثم أشار إلى التنمية ودعْم الإنتاج،

والتربية السّوية لأطفال لن يحرموا بعد اليوم من هذه المخلوقة المحببة لهم: "الشوكولاته"! إنهم اليوم يتمتّعون بما تمنّى آباؤهم أن يتذوقوه. وتحدّث عن الاستقلال الاقتصادي، وارتباطه بالتربية في المجتمعات النامية، وانعكاسات ذلك كله على إنسان الغد. وتوصل في النهاية إلى أن المصنع يسدُّ فراغاً كبيراً كنا نعاني منه، في معركتنا لتعزيز اقتصادنا وترسيخ دعائمه وتوفير الرفاهية للمواطن، والمَنَعة، واستقلال القرار للوطن. وبذلك نكون خارج هيمنة الاحتكارات الأجنبية وضغوط الغرب!

إلاّ أن الصحفي المكلف بتغطية المناسبة، وجد أن نشر مثل ذلك الكلام في الصحيفة سيكون نكتة، لا سيما وأن الصوّر التي التقطها المصوّر أظهرت الجنرال متحمّساً كما لم يكن في أي من صوره السابقة؛ فعلى الرغم من أن الصور بالأبيض والأسود، إلا أن الناظر للصورة سيرى حُمْرة خديِّ الجنرال واندفاع الدم في عروق رقبته؛ ولكن جملة الجنرال الأكثر حضوراً كانت تلك التي تؤكد على أن الشوكولاته والعلكة عنصر صمود في المعركة.

عاد الصحفي إلى الصحيفة وكتبَ الحديث على مسؤوليته الخاصة، حول أهمية إقامة المشاريع الصناعية، مهما كانت صغيرة أو كبيرة، لأن البناء الاقتصادي كل متكامل، وسنسعى لتحرير إنتاجنا من التبعية للسوق الأجنبية بإقامة المصانع، لأن كل مصنع هو لبنة أساس و...

لم يذكر العلكة في المقال كلّه.

وافق رئيس التحرير على النص وأدخل بعض الإضافات التي تنقل الكلمة من حيّز الشوكولاته والعلكة إلى أفق عام يتعلّق بالتنمية، ولم يفعل ذلك إلّا لأن الجنرال أوحى له في إحدى المقابلات أن يتصرّف أحياناً فيما يقوله لمصلحة البلد! كان مطمئناً إلى ثقة الجنرال به.

***

رئيس التحرير كان نائماً في اليوم التالي، حين رن جرس الهاتف، هبّتْ زوجته وهي تتمتم: اللهم أجعلْه خيراً.

رفعتْ السماعة.

- مكتب الجنرال معك، الأُستاذ موجود.

- ارتعبت، لأنها تعرف أن الاتصالات الصباحية تحمل الشرّ دائماً. معناها أن هناك مصيبة، هناك خطأ!

أيقظتْ زوجها الذي قفز كضفدع، ولكن فُتات النوم ظلَّ يتساقط من عينيه كتلاً صلبة، لا تلبث أن تتطاير ما إن تلامس الأرض.

- حاضر سيدي.

كان المساعد الخاص على الخط.

- أريد أن أسأل، من قام بتغطية افتتاح الجنرال للمصنع أمس؟

- هل ثمة خطأ سيدي في التغطية؟ هؤلاء الأغبياء يفضحوننا دائماً. سأطرده!

- إنني أسألك، من قام بتغطية الافتتاح؟

- صحفي جديد سيدي، اسمه...

- لا يهم اسمه، الجنرال يوصيك أن ترسله دائماً لتغطية أخباره، لقد وصفه بأنه ولد فهمان يلقطها على الطاير!

- حاضر سيدي!

وفي اليوم نفسه تم إغلاق بقية الصحف لمدة أسبوع بقرار من مكتب الجنرال شخصياً، بسبب التقصير في التغطية، والغباء، والتشويه الذي لحق بخطبة الجنرال. وصدر بيان يؤكد ويطالب باعتماد النص الحرفي الذي نشرته صحيفة "الحقيقة الحلوة".

***

لم يستطع رئيس التحرير التقاط شيء مما يقوله الجنرال، صرخ الجنـرال: أين ذلك "الولد" الذي يغطي أخباري؟

جاءت كلمة "ولد" توبيخاً شديداً لرئيس التحرير، لا توبيخاً للولد.

- مسافر سيدي.

- مسافر؟! أين؟

- خارج البلد؟

- كيف؟

لم يستطع رئيس التحرير الإجابة على السؤال. ظل صامتاً.

بيده، أشار إليه الجنرال أن يغادر الغرفة. بقرف.

تجاوزت الساعة منتصف النهار، لمحها الجنـرال وظـلّ يواصـل دورانـه مُطارداً الفكرة، مثلما يطارد إنسان ما ذبابة مزعجة.

***

أصبح الوقت ثقيلاً في غرفـة الانتظـار، تأمّـل أحمـد الـصافي الجـدران، الوجوه، المروحة المسطولة المُعلَّقة في الهواء الفاسـد، المتدلّيـة مـن الـسقف؛ وكان مُعلَّقاً أيضاً. حاول أن يبحث عما تقوله ملامـح النـاس -تلـك عـادة يحبها، إذ يستخدم كثيراً مما يراه في قصصه- لمح فتاة تـضحك وهـي تهمـس لأمها، قال: *ما زال الناس قادرين على الضحك حتـى هنـا!* ابـتهج، سَرَت ابتسامتُها في جسده، اسـتراح، أحـسّ أنـه هـو الـذي يـضحك، هـو الـذي يهمس.

نظر حوله بعد استغراق طويل، فوجئ أنه أصبح الـشخص الوحيـد في القاعة، انسلَّ الناس، أو استلَّهم الصوت القادم من مكبر الـصوت الـرديء في واجهة القاعة، واحداً، واحداً.

عادت الوحشة فألقتْ بسياطها على روحه، وأطبق الضِّيق بذراعين وحشيّتن على عنقه.

ليس هناك من صوت سوى هدير محركات السيارات الخاطف وهي تعبر الشارع المجاور.

***

أشرقت ملامح الجنرال، صمتٌ كامل أفترش المدى والوقت، هدوء لم يتوافر لتولستوي حين كتب (الحرب والسلام).

تحرَّكتْ فيه الرغبة لقضاء حاجته، حاول أن يؤجلها، ولكنه لم يُرِدْ تشتيت أفكاره في أي مسألة جانبية!

كان يريد أن يكون صافياً تماماً.

فتح الباب، خرج.

خلْفَه مساعده الخاص.

- أين الحَمّام؟

- أين الحمام؟ صرخ المساعد الخاص، ولم يكن حوله أحد.

هبطا الدّرج.

المتكوِّمون في الداخل سمعوا وقعَ أقدام واثقة، هبّوا فرحين: لقد مرّ كل شيء بسلام، لقد نجحَ الجنرال أخيراً.

قفز رئيس التحرير من بينهم، احتشدوا بباب القاعة. مرّ الجنرال بقربهم متشامخاً. دوى تصفيق حار؛ اعتقدوا أن الجنرال سيغادر الصحيفة: ابتسم لهم.

أومأ المساعد الخاص لرئيس التحرير. اقتربَ.

- أين الحَمّام؟

أشار إليه.

وانطلق رئيس التحرير خلْفهما. دخل الجنرال، ووقف رئـيس التحريـر مثل حارس يقظ أمام الباب.

يبدو أن المسألة كانت مستعصية هناك أيضاً! إلا أنه خرج، خرج أخيراً، لم يصفّق أحد هذه المرّة.

وصعدا الدرج.

***

أخذ نفساً عميقاً، دلالة الرضا. احتل الكرسيّ. اعتدل. أتّخذ هيئة كاتب محترف، يده على خده، القلم في يده. تذكَّر الصورةَ الشهيرة لأمـير الـشعراء أحمد شوقي؛ لكنه عندما همَّ بدخول البياض كاتباً، اكتشف أنه نسيَ ما يـودُّ قوله. نسيّ الجملة الافتتاحية المتعلقة بأهمية الـسلام للـشعوب. بحـثَ عـن تلك المسوَّدة لم يجدها، لا بد أنه كوّرها وألقى بها باتجاه الساعة.

صرخَ.

لحظة وكان مساعده الخاص بين يديـه، كـان يريـد منـه أن يبحـث عـن الجملة المفقودة. لقد نسيها. صرفه، اندفع باتجـاه الكـرات الورقيـة المتنـاثرة يبحث عن الجملة جاثياً على ركبتيه. وجدها أخيراً. أخذ نفساً عميقاً ساعد في اندفاع صدره وسطوع نياشينه. عاد إلى الطاولة، كتبها:

السلام مطلب إنساني أولاً وأخيراً.

حاول كتابة جملة أخرى مستعيناً بكل قواه، لم يستطع..

هتف: لو كنت أستطيع الكتابة بالدبابة لا بالقلم، لكنت أفضل مـن أي كاتب على وجه هذه المعمورة، المعمورة الخاربـة! كنـت سـأكون عـلى أقـل تقدير بمستوى فوكنر، ولم يكن يعرف من فوكنر شيئاً، ولكنه مـا إن سـمع أسمه على لسان مساعده الخاص الذي طلب منـه تقريـراً عـن أهـم كتّـاب العـالم، حتـى توقـف أمـام اسـم فـوكنر: لـه رنـين، رنـين خـاص. فـوك، نرررررررر.

مضى باتجاه الباب، فتحه، صفقه بعنف. خرج، تبعه مساعده، الحراس، ومن الطابق الأرضي أطل رئيس التحرير برأسه، كأرنب عقب عاصفة.

أخذ الجنرال مقعده في السيارة، كان الهدوء المشحون بالتوتّر يساعد في اتقاد لهب آب أكثر فأكثر. توقّف رئيس التحرير حائراً حين دفعه أحد الحراس بعيداً عن العربة.

قال لمساعده الخاص: الجو غير مناسب أبداً للكتابة في مبنى الصحيفة، إن رائحة العفن تفوح من حبر المقالات السخيفة التي يكتبونها فيها. إلى "المكتبة الكبرى" هناك جو العلم والأدب، هناك فقط.

***

انطلق المساعد قافزاً الدّرجات ومبعثراً الهدوء المشحون بالتوتر، طالباً إخلاء المكتبة بناءً على طلب الجنرال، فأنسل روّادها على رؤوس الأصابع تتابعهم عيون البنادق؛ حيث وسط المدينة، حيث الضيق وانعدام الهواء، والظهيرة المجنونة. والعربات المحتقنة بلهيب محركاتها؛ حيث الحديد أكثر من اللحم! لكن ذلك لم يكفِ. اندفع المساعد ثانية وخلفه الحراس باتجاه المحلات التجارية: باعة مواد البناء، والفلافل، والتلفزيونات الملونة، سينما الشعب، والمبولة العامة، أكشاك الصحف، محلات النوفوتية، وأحذية الشعب المغلقة، منذ زمن طويل، لأنها علّقتْ يافطة بالأحمر العريض -عن حسن نيّة- كُتب عليها: "أحذية الشعب تهنئ الجنرال بحلول شهر رمضان"!

حظر تجوّل كامل، سَحْبُ سائقي العربات من داخلها بعد إطفاء محركاتها، وملاحقتهم في صعودهم للتلال وهم يجرون على أربع.

لكن النتيجة لم تتغير!

***

انطلقتْ عربة الجنرال عبر شارع "التحرير" انعطفتْ باتجاه شارع "المجد" ثم شارع "النصر" "فالحرية"، واجتازت الشارات الضوئية عند تقاطع شارعي "الشعب" وشارع "الجنرال"- الأوتستراد الأكثر أناقة واتساعاً في البلد كله. ثم عبرت العربات بحي "الجنرال"، وهو حي كبير سُميّ باسمه تخليداً للمذبحة المعروفة التي قام بها قبل سنوات وذهب ضحيتها ما يزيد على ألفي قتيل من سكانه، ولتجاوز أبعاد المذبحة في قلوب المذبوحين تزوّج الجنرال واحدةً من صبايا الحي، التي لم تزل على ذمته حتى الآن! وعاهدهم أن ينجب من اتحاد سلالته بسلالتهم ما يدمل به جراح الماضي. كانت عربة الجنرال تشقّ المسافات، في حين تتقافز عربات الناس مذعورة.

رنّ جرس الهاتف في السيارة المصفَّحة. رفع مساعده السماعة ناوَلَهُ إياها: السفارة الأمريكية معك سيدي.

دهش الجنرال. السماعة في أذنه!! جاءه الصوت حازماً، مؤنباً، مُطَمْئِناً، غاضباً: طوَّقنا الموضوع، هذه المرة مرّتْ بسلام. لا داعي للاعتذار عبر الصحف، وكما يقول مثلكم: "مش كل مرة بتسلَم الجرَّة"!

تنفس الجنرال ملءَ رئتيه بهواء لم تعرف الأرض مثله، اندفعَ صدره، سطعتْ النياشين كما لم تسطع في أي يوم. ابتسم، ابتسم المساعد، والسائق، المرافقون، ولويت أعناق السيارات في منتصف طريق "الغضب الساطع" عائدة إلى شارع الجنرال.

***

حاول أحمد الصافي أن يخفِّف من ثقلَ الوقت الضاغط على كتفيه، اكتشف أنه غير قادر على الحركة! كل هذه الساعات الفارغة أُعدَّتْ له، المقاعد الفارغة، مكبر الصوت، الهدوء الحلزونيّ على الجدران، طحالب الهواء الساكن المتدلّية من السقف، الذاهبة في الرئتين.

يكره الانتظار.

في البعيد رأى صحيفة. لم يقرأ الصحف في ذلك اليوم. جمعَ نفسه ليقف، سار باتجاهها، أحسَّ أن ظهره قطعة من مسند المقعد الطويل، المقعد الجماعيّ الشبيه بالقبور الجماعية. كانت الصحيفة ملقاة هناك في أقصى القاعة، خطا باتجاهها، لكنه فوجئ بوجود أكثر من صحيفة، عشرات، ملقاة كيفما اتفق. كل صحف البلد كانت هناك، يحضرها المراجعون معهم لقتْل الوقت القاتل، وحين تتفجّر حروف أسمائهم مختلطة بخشخشات مكبر الصوت الصارم، يتركونها مفتوحةً عند الصفحة التي كانوا غارقين فيها: بريد القراء، الصفحة الملونة، حظّك اليوم، مقال الأسبوع، فلسطين المحتلة.

صحف، صحف، صحف، صحف! أسعده ذلك، التقط عدداً منها. عاد إلى مكانه. كان يمكن أن يجلس في أيّ مقعد يريد، ولكنه لم ينتبه لهذا! عاد إلى مكانه، وكأن كل المقاعد لم تزل محشوّةً بأجساد البشر وعرقهم، بخوفهم، بترقّبهم، بضحكاتهم المختلسة.

تنبه إلى أنه عاد إلى مكانه! فجأة، تأبّط الصحف، بحث عن مقعد آخر، كلّها متشابهة، نسخٌ مكرّرة، أعجبه أحدها! خطا باتجاهه، كانت كمية الضوء السّاقطة على ذلك المقعد من النافذة المطلّة على الساحة الخارجية أكثر قوة. إنه قادر على أن يأخذ المقعد الذي يشاء، في الركن الذي يشاء، حيث الضوء. وخطر له أن يجلس على كل المقاعد، مثل طفل يجد نفسه وحيداً في مسرح كبير ممتلئ بالكراسي الزاهية.

كان يهبط برضى، ليحتلّ المقعد، ولكن ما إن قطع نصف المسافة، قبل أن تلامس مؤخرته خشبَ المقعد، هبَّت عاصفة من الخشخسات، عرف مصدرها ثم جاء الصوت صارماً: أحمد! عُدْ إلى مكانك!

في الأقبية الشبحيّة الحالكة، مرّ الصمت، محاولاً اقتحام باب غرفة التحقيق، ليختطف روح الفتى المستند إلى الجدار الملطَّخ برذاذ الدم: *كيف لا يصحو الجدار حين ينتشر كلّ هذا الرذاذ على وجهه، كيف لا يصحو؟!*
ولكن سعد، وجد لعبة يتسلّى بها، كان يتابعها من شقٍّ صغير بين انتفاخين يحاولان الالتقاء، واحد يهبط من حاجبه والآخر يصعد من خدِّه؛ لعبة جعلته يضحك مرّتين بصوت عال وهو يتلقّى اللكمات الخاطفة المتقنة حيثما اتّفق.

حوله، كان خمسة من حَمَلَة العصيّ الرّشيقة اللاسعة، وسادسهم مسؤولهم.

بعد أن يقتطعوا من لحمه الكميّة الكافية لإرهاق عضلاتهم وشهوة عصيهم، كان الأنيق يتقدّم -هكذا لقَّبَهُ سعد- فيوجِّه لكمة صائبة إلى الجسد الدّامي، ويرجع ثلاث خطوات إلى الوراء؛ يُسوّي ربطة عنقه، ياقةَ سترته الزرقاء، يشدّها إلى أسفل لتنهدل على جسده، فيتقدم حملة العصيّ لأخذ حصتهم من الجسد، ثم يتقدَّم الأنيق فيكرّر المشهد مثل دمية إلكترونية.

ضحك سعد مرتين، فأعتقد المحقق أنه يهلوس: الخطوات متقنة، متساوية محدّدة، نمطيّة، يزيدها اندفاع اليدين باتجاه ربطة العنق ثم ياقة السترة الزرقاء، وشدها إلى الأسفل بعد ذلك، جلالاً. كان أشبه بموظف

منافق مؤنق من الدرجة العاشرة يطلبه رئيس مجلس إدارة، فيقوم بتلك الحركات المعروفة قبل دخوله المكتب الواسع.

نسيَ سعد الجلادين، لم يعد يراهم، اختفوا تماماً، لأن عينه لم تعد ترى سوى الأنيق، تتابعه، تترصَّد كل حركة من حركاته.

للم الحروف الممزّقة عن شفتيه الممزقتين. طارتْ ابتسامة من داخله افترشتْ الأجزاء الواضحة من قسماته تحت الدم، فالتقى الانتفاخان لحظة.

- تشبه لعبة إلكترونية.

- ماذا؟ صرخ المحقق.

- حركاتك، حركاتُ لعْبَة، هل لاحظت ذلك؟! لعبة جيدة، ولكن أين صُنِعَتْ؟!

انتبه الأنيق لأول مرّة إلى حركته الآلية. ولكنه قبل أن يُدرك ذلك، وجَّهَ لكمةً قاسية إلى سعد. عاد ثلاث خطوات، إلّا إنه تعثّر هذه المرة، لم يعد قادراً على ضبط حركته. كل شيء أصبح مُربكاً بالنسبة له: الخطوات، اللكمات، ربطة العنق، السترة. أصبح مشغولاً بحركته الآلية أكثر من أي شيء آخر، مثل ذلك الشيخ ذي اللحية الطويلة الحمراء، حين قال له رجل: كم هي جميلة لحيتك أيها الشيخ! ولكن قلْ لي، حين تنام هل تضعها تحت اللحاف أم فوق اللحاف؟! فارتبك الشيخ، لأنه لم يكن قد انتبه لذلك قبلاً، قال: لستُ أدري والله! ولما حانت ساعة النوم، وهبط الليل سباتاً، ألقى الشيخ اللحاف على جسده وغطى لحيته، لكنه تذكَّر سؤال الرجل، فأحس أن الأفضل وضعها خارج اللحاف. وهكذا فعل، إلا أنه بعد دقيقة قال: لا شكَّ أنني كنتُ أضعها تحت اللحاف، لأنني لم أرتح وهي فوقه، فأعادها حيث الدفء، فاكتشف أن حرارتها تُلهب صدره، فأعادها إلى الخارج! ومنذ تلك الليلة، لم يستطع النوم، وقد بات مشغولاً بوضع لحيته. هكذا،

بعد ليال طويلة، كان الحلُّ الوحيد لبقائهِ على قيد الحياة، أن يجتثَّ لحيته، كي لا يموت إرهاقاً واصِلاً الليل بالنهار والنهار بالليل!

تذكّر سعد الحكاية وضحك. غادرَ المحقق الغرفة، وعاد حملة العصيِّ للظهور ثانية واحتلال المشهد. انطلقتْ صرخة ملء الممرّ الشاحب للقبو وزادته وحشة، تابعت الأنيق وهو يختفي في اللانهاية، أطبقتْ على أُذنيه كقبضتين هائلتين، فأحسَّ بأنه يُسحَق.

***

كانوا يجرُّون سعد باتجاه زنزانته بقدميه الميتتين، شبه غائب عن الوعي؛ ولكنه ما إن وصل إلى الزنزانة الأولى، حتى أدرك أن ثمة من يراقبه من داخلها، ويحتاج إلى ومضة أمل. رفعَ رأسه في لحظة خاطفة وانتصب، فراحت عيون السجناء تَخْضَرّ وهو يمرّ أمام الكوى. تلك هي الرّسالة البسيطة التي يمكن أن يكون لها فِعْلها الكبير: *انتصب يا سعد، واسكبْ كل قوتك في قدميك، فلتغرسها في الأرض، وارفع رأسك عالياً، فالجميع ينتظرون أدوارهم.*

كان يهمس لنفسه أو يصرخ بها.

كان يهتف لروحه، أو تهتف له..

ولكنه عندما وجد نفسه وحيداً في الزنزانة، أحسَّ بألم لا يطاق، وبقهر لا يوصف، فأسْلَمَ نفسه لبكاء هادىء عميق.

ستصرخ فتنة: لم أعد أطيق. وستطبق بصراخها على سَكينةٍ هشّة: سنرحل، لأننا ببساطة، لا نستطيع أن نواصل العيش هنا، لقد فعلتُ الكثير من أجل إزالة آثار الحبر عن الجدران، عن المكتبة عن الكرسي وعنك!

وسيصمت أحمد، ويهمس لنفسه، يصرخ لنفسه:

- سيرحل الحبر معنا. سترحل البقع السود على الجِلْد. سيرحل القطّ الأسود المنفجر في حاوية القمامة. سترحل الشلالاتُ وتتابعُنا الملابس، ملابس الجريمة! سترحل صرخةٌ تهدم السَّكينةَ فوق رأس الصباح. نافذة لضوء مقيد على جدار سترحل. جنرال سيرحل، وليلة طويلة، طفلها، أين طفل الليلة الطويلة الآن؟ أين أصبح؟ سترحل الذكرى، الدّم، مكبّر الصوت، صحفٌ، بشر، فراغ، حرية في مقعد!

هل ابتعد ذلك الزمان؟ إلى أي مدى؟ هل حددتْ بعدَه الأيام والسنواتُ؟ أم هذه المسافة الشاسعة بين تحليقة طائر ودبيب الخطى الضائعة على أرض باردة.

***

في ذلك اليوم البعيد جلس وفتنة في قاعة النادي، ومعهما أحد أصدقائه. كانت صامتة، ترتشف القهوة وهدوء الساعة الخامسة الغافي على الشرفة.

فجأة قالت: الليلة حلمتُ بكَ.

- ماذا؟

- حلمتُ بكَ.

- كيف؟

ارتبك، تمنّى لو أنه قال أي شيء غير" كيف؟" ارتبك صديقه، تصببَ عرقٌ غزير دفعةً واحدة، كأنّ جبينه انفتح.

نهضَ صديقه مفسحاً المجال لهما، أو هارباً!

قالت: حلمتُ بك، مثلما تحلم أي امرأة برجُلها.

- تعنين؟!

- نعم، كنت رائعاً!!

وظلَّتْ تتحدَّث هادئةً، يملؤها حسّ عميق بالنشوة.

تزعزع ثانية، وعبثا بحث عن ردّ! ماذا يقول رجل لامرأة تقول له "حلمت بك، وكنت رائعاً"؟!

قال لها: شكراً.

قالت: كيف تشكرني؟! إنه حلم، ولم أفعل، أو تفعل شيئاً في الحقيقة!

قال: ولكنكِ قلتِ لي إنني كنتُ رائعاً.

قالت: في الحلم أنتَ مجنون!

تساءل: ماذا أقول الآن؟

قالت: كن أنتَ!

قال: أكون مجنوناً، يعني؟!

قالت: ولِمَ لا.

***

كان يمتلك جرأة الحرف. وكانت "فتنة" تمتلكُ جرأة الفعل.

حَمَلتْه بين يـديها ذلـك اليـوم وزجَّتْـه في الياسـمين وصـدرِها. أوقـدتْ خلاياه كلّها، فتحتْها الواحدة تلو الأخرى؛ ثم عبرتْ المدينة تقـود السيارة وهو إلى جانبها، دخلتْ تلك الأحياء الصغيرة التي تبـيّن لهـا فـيما بعـد أنهـا الأحياء نفسها التي كانت تطالبُ بتحسين أوضاعها ومنحها السماء الكافية لتحليق الحرية والحياة، ولكنها لم تكن وطأتْ ترابها!

المساء وسحابة غبار وعربة تتوقّف في ساحة ترابية واسعة.

مالتْ نحوه وقبّلَتْه، وسيظل يتذكّر كيف طـار نـصف جمجمتـه عاليـا، وسيظلُّ يطير كلما أحسَّ بدفء الذكرى يـسري في دمـه. معجـزة الفتنـة. لم ينطق اسمها إلاّ حين ذهب ليخطبها، وبعد ذلك ظلت فِتْنة. ولكنهـا امـرأة المتناقضات تصحو فتوقد العالم حولها، وتنام كقتيل.

قالت: نعيش هنا، ولِمَ لا! وكانا في الحارة الترابية.

ولكنها كانت تتواطأ دائماً مع الوقت لتتسلل عبر دقائقه وتبتعد. حنينها يسكنُ رحيلها، وقبل أن تطالبه بالرحيل، والابتعاد عن تلك المنطقة الفقيرة، كانت قد رحلت!

***

كل الأشياء ترحل في مدينة ضيّقة غير قابلة للانفجار..

والمدينة ليست مريم ليست ذلك الجسد المهيأ كوليمة في قاعة المؤتمرات، في الليلة الطويلة:

(الأصوات تأتي من بعيد مختلطة بارتطام آلات التصوير الواحدة بالأخرى، هذا الإيقاع الفوضوي الخاص، ذو الرنين الخاص، الجميع على أهبة الاستعداد أو الانقضاض بعدساتهم على الجسد، الجسد المُلقى كوليمة في قاعة المؤتمرات، جراح طازجة وأخرى قديمة، جنرالات، عدسات تصوير، جنرالات بكامل أوسمتهم، أوسمة على الياقات، على الصدور، والأذرع، على العباءات المُقصَّبة.

والجسد مهيأ كوليمة في الداخل.)

***

أصوات الأقدام تأتي، تـأتي مختلطـة، مختلطـة بأصـوات يعرفهـا، يتفقّـد قميصه، عند الصدر، يتأكد من أن الياقة محكمة، والكُمَّين، كان يخـشى، أن يتفصَّد جسده عرقاً لاهباً في تلك القاعة الملقاة، الممتـدة حتـى عتبـات كـل البيوت! كان يخشى أن تظهر عندها بقع سودٌ، أن يذوب الـثلج ويظهـر مـا تحته، أن يثور الحبر ويفضحَ ما فوقه. عيناه مرهقتان مثل جرح متقيّح، ويداه تقبضان على صحيفة ما. كان يقرأ، واكتشف أنه لم يقـرأ شـيئاً، كـان يمخـر عبر سطور سوداء لحبر أسود أفزعه أنه تحلل فوق أصابعه.

كفّاه أسودان، تَعِبَ، السّواد الجنوني الحالك يفترشه كهزيمة. فركَ يديه بأقصى ما يستطيع من سرعة، كان يريد أن يتخلَّص من آثار الجريمة عليهما، من صدى الجريمة في كفين مرهَقين، والأصوات كانت تقترب، تتقدَّم نحو القاعة.

ويعبر الجنرال..

كان أحمد الصافي يجلس في القاعة مهيـأً كـضحيّة، أو لحظـةٍ مقفلـة بـلا مدى، عبر الجنرال الباب الخشبي فتأرجح الباب خلفه، ثم عبر مساعدوه.

دهش الجنرال. كان لابدّ أن يدهش! تمّ الأمر بدقّة كـما لـو أن مـصادفة عجيبة زرعتْ جذورها في خطوة عابرة، تجمّدت، إذ أحست فجـأة بوجـود لغم.

غضب الجنرال.. تناثر مساعدوه يرتجفون، تبعثـروا. اقـتربَ مـن أحمـد الصافي. الإرهاق حوَّله إلى مشنوق مثاليّ تعبتْ جثتُـه مـن فـرط مـا عُلِّقَـتْ بالحبل وتأرجحتْ. كان يتأرجح. هزّ الجنرال رأسه متـصنّعا أسـفاً. وقـف أحمد الصافي حائراً. اقترب الجنرال منه، عانقه بحرارة.

سيحدثُ ما كان يخشاه طوال اليوم، سيتفصّد العرق ويفجّر بقـع الحـبر النائمة، سيقتلعها، وستطفو على القميص، القمـيص الأبـيض، والبنطـال،

وتتسلل إلى ثياب الجنرال في هذا العناق الطويل. ستلوِّث ملابسه، أوسمته، وربما سيتفصّد عرَقٌ الجنرال فيسفِرُ عن شيء آخر تحت ثيابه، يفضحه! بقع من دم مثلاً، تطفو على ملابس الجنرال تخترق الكاكي المُسلَّح، تبتلع النياشين. دماء تقطرُ، تنسابُ إلى أرضية القاعة، أرضيّة الكون، ويختلط الأسود بالأحمر، *"ما في حد أحسن من حد!"* . ظلّ الجنرال يعانقه بحرارة؛ أحد الأوسمة الكبيرة المُعَلْقة على صدره وخز أحمدَ، كان يريد أن تنتهي اللحظة بسرعة، كان دهشاً في حضرة العناق، وكان الوسام يغوص في أسفل الصدر أكثر، يثقب القميص الأبيض يتسلل إلى بقع سود، يثقبها، ستنفجر مثل البلالين. يتقدَمُ الوسام، ثم يتراجع بسرعة مبتعداً!

- لا تقل لي إنك هنا منذ الصباح، أرجو أن تسامحنا أستاذ أحمد، حقّكَ عليّ، عليّ شخصياً! التفتَ إلى مساعديه: من الحمار الذي أبقى الأستاذ أحمد كل هذا الوقت هنا؟ هل تناولتَ طعاماً؟! لا لم تتناول! من الحمار الذي ينسى أحد أهم عقولنا الصحفيّة هنا؟! أنت ثروة إنسانية لنا أستاذ أحمد، أعجب كيف يبدّدونها هكذا!

***

(الجنرالات يتدافعون، آلات التصوير تُطلِق فحيحها المعدنيّ، حيث تُحشى بأفلام جديدة. فحيح يشبه ارتطام باب الزنزانة بحَلَقِهِ، مثل احتكاك قفل وجنزير بالليل.

الطاولة في الداخل كبيرة دائرية، وتتسع لعشرين جنرالاً بكامل أوسمتهم.

كان الجسد ملقىً على غير سجيته! جراح، دم، شَعر، جسد مقيّد في هواء مقيّد. ستسقط الستارة عما قليل، وتظهر مريم، تتجلى، تسقط العيون دهشة على المشهد بكامله.)

- أُكرر اعتذاري شخصياً! وضعَ الجنرال يده في يد أحمد، مثل صديقين يلتقيان فجأة، ويختصران الماضي في دقائق. صعد الجنرال الدرجات دون أن

يترك يد أحمد تفلتُ منه. عرق غزيرٌ، عرق غزيرٌ تدفَّقَ من بين الأصابع، تساقطَ على طول الممر حيث تزرع خطواتُهم الوحشةَ: الجنرال وأحمد والمساعدون. عرق له رائحة غريبة.

- أغبطكم أستاذ أحمد ككتّاب -كان يريد أن يقول أحسدكم، أقتلكم- كيف تقبضونَ على عنق الكلمة مثل الفحول، فلا تستطيع معكم حِراكاً؟! لقد قرأتُ مرّة أن أجدادنا في الجاهلية كانوا يُطلقون على شعرائنا الجيدين لقب الفحول لأنهم يمتلكون قصائدهم كما يتملك الفحل أُنثاه!

***

(ومريم كانت على الطاولة. تنتصب الستارة، وخلفها البياض بكامله، بياض الكفن الذي يُشرع باب القاعة. يندفع الجنرالات نحوها، الآن فقط يستطيعون القول إنهم يمتلكونها. حولهم المساعدون. الحرس الخاص لكل منهم، الذين يدفعون بعضهم بعضاً بالأكتاف؛ مصوّرو محطات التلفزيون، الصحف، الأقمار الصناعية، عربسات، المذيعون، الإعلام العالمي كله.

يتقدّم أحد الجنرالات، الأكثر أوسمة، يُمسِكُ بحبل الستارة، يشدّه إلى الأسفل، تتسع عيون عدسات التصوير، تلمع الأضواء من كل جانب، برقاً مجنوناً، تتطايرُ الأكفُ مُصفّقة بحرارة، يهتف الجنرال حين يعمّ الصمت ويصبح بئراً بلا قرار:

- الآن أقدم لكم الشهيدة، بكامل جراحها.

وانتزع الكفن بحركة رشيقة مدرَّبة!)

***

- لماذا تحضر الليلةُ الطويلة؟ لماذا لا يحضر طفلها في هذه اللحظة؟!

حاول أحمد أن يتذكّر بقية القصة. قرأ يوماً أن القاص المصري يحيي الطاهر عبد اللهّ كان يقرأ قصصه غيباً في الندوات، مثل راوية شعبي. حسده، أو غبطه. كان يودّ أن يذهب أكثر في التفاصيل الصغيرة للقصة، يتذكّرها، لأنه

بحاجة إليها، كما لم يكـن في أي يـوم مـضى. كـان العـرق ينـساب مـن بـين الأصابع، يختلط بخرير شلالات حبر جارفة.

ستحاول فتنة إزالة آثار البقع. ستحاول، عن الجدران والطاولـة وعنـه، وتقول: سنرحل من هنا، سنرحل اليوم، قبل الغد. ويقـرران إغـلاق بـاب غرفة المكتبة، حلّ وسط يرضي الجميع!

كان على قناعة من أن غرفة واحدة تكفي، وأنه سـيجد حـلا في النهايـة لهذه البقع التي تنتشر على جسده.

- لن أدعها تراها، سأغسلها وحدي عن جسدي، سأدّعي أنني متعب، مريض. إلى أن تزول آثارها، لن أقترب منها.

وكان خائفا من العتمة فاندسّ في حضن فتنة كقطعة من ليل سريّ.

أفلتتْ يده، انزلقت، فأصبحت حُرّةً، ارتطمتْ بشيء حاد في جيبه، فَرِحَ، مفتاحُ المكتبة في جيبه، تذّكر ذلك فَفَرِح!

***

- أستاذ أحمد سأدعوك الليلة للعشاء، هنـا. كـان بـودّي أن نـذهب إلى البيت أو إلى أحد المطاعم الفخمة، ولكن الأعمال صعبة؛ يجب أن أُتابع كـل شيء، خطوة خطوة هنا: مسؤولية الحفـاظ عـلى البلـد. أن تكـون مـسؤولاً معناه أن تكون عيناً بلا جفنين، لا تستطيب النّوم، وغير مسموح لها به.

- لا بد أنك جائع الآن!

- أرجو أن تسمح لي بالعودة، لا بد أن زوجتي قلقة عليّ، وطفلي أيضاً.

- عذرك مقبول! طفلك كم عمره؟

- ثلاث سنوات ونصف السنة.

- زوجتك تعمل؟

- نعم.

- عذرك مقبول، عاد الجنرال يردّد. ولكن ستظل الدعوة قائمة. اعتذر مرة ثانية على الإزعاج الذي سببوه لك؛ أؤكد لكَ أنني سأعاقبهم. أيّ أُمة هذه التي لا تدرك أهمية صحفييها الكبار.

- مرة أخرى يتعامل معي كصحفيّ، صحفي فقط. إنها مقصودة، الجنرالات ليسوا أغبياء كما نتصوّر، مقصودة.

استدار الجنرال، نظر في وجهه مباشرة، ولكن نحو الأعلى، الجنرال كان قصيراً، والصافي كان طويلاً، كرجل جبلي، كانا في الممرِّ ما زالا، عانقه ثانية، فعاد الوسام وغاص في أسفل صدره. وضغط الجنرال.

- سامحنا!

ثم طلب من مساعده الخاص أن يوصل أحمد إلى البوابة ويودّعه هناك.

***

الليل يمتدّ جرحا باهتاً، والمدينة نصف نائمة كعادتها، نصف غائبة. كان يود أن يُشعل الفتيل ويفجّرها، هذه المدينة، دفعة واحدةً؛ لكنه كان يعرف أنها مدينة من ديناميت مبتل، تلزمها شمس كبيرة قبل ذلك لكي تنفجر.

كان يبحث عن سيارة ما تقلّه. الثامنة مساءً، الشوارع فراغ. ابتعد كثيراً عن مقرّ الجنرال. الثامنة والربع، لم تَلُحْ عينا عربةٍ في ذلك الليل الباهت، كان يلتفت خلفه، رأى شخصاً في البعيد، يركض، يقترب، يركض وينادي، وكان الليل ينقل الصوت صافياً فيصِل.

- أنت!

أدرك أنه واحد من حراس مقر الجنرال: *هل يريدون اعتقالي؟! ما هذه اللعبة التي يلعبونها معي؟! حين أعتقد أن كل شيئاً انتهى، أكتشف أن شيئاً لم يبدأ بعد. قتْلي؟*

تمنّى أن يركض، ولكنه كان تَعِباً. كان الركض عقوبة أكبر من الموت في تلك اللحظة! انتظر.

وصل الحارس: أنت، ما اسمك؟

- أحمد الصافي.

الجنرال يقول لك: غداً ستشربان قهوة الصباح معاً!

أوشك على الانفجار، انفجار يقتلع هذه المدينة، هذه المدينة المبتلّة بديناميت مبتل، يريدونني منهاراً، لعبة القط والفأر!

مضى في الطريق. لم ينطق بكلمة. مضى، تذكّر الصحيفة، عليه أن يكتب المقال، عليه أن يعود إلى البيت. مبنى الصحيفة أقرب، انعطف في شارع آخر يتّجه نحو الصحيفة: *أكتبُ المقال أولاً. ولكن ما الذي سأكتبه؟!* وظل يسير باتجاه الصحيفة. لحقته سيارة أجرة ضالة في ذلك الليل الضّال. توقّفتْ، انطلقتْ به.

***

تذكّر الصرخةَ التي جاءت من القبو، حضرتْ بكامل مداها، ماذا تكون؟ اكتشف أن حاسته القصصية بدأت تستيقظ، قال: سأكتب قصة بعنوان "الصرخة" بذلك أردّ على الجنرال، أنا لست صحفياً في الأساس وسأبقى قاصاً حتى النهاية!

"الصرخة". صرخة يسمعها عددٌ من الناس في قاعة انتظار، وكل منهم يرى فيها شيئاً مختلفاً، يتقاطعُ مع حالته الداخلية، أسباب وجوده هناك، صرخةٌ عابرة تهزّ قاعة مليئة بالبشر.

تنبه إلى أنه أُرهق أكثر مما يجب، ساءه ذلك، تذكّر أحد أبطال قصصه.

سأل: *كيف أقبل أن أكون أقلّ منهم؟*

الجنرال في مكتبه، دخل مساعده: نتائج التحقيق سلبيّة سيدي، لم يبق لدينا ما نفعله غير الضرب، إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك، إلا إذا كان هناك قرار بأن نقتله!

***

دار النهار دورتين، والليل لّما يزل في إثره. الوقت خطوةٌ في ضباب كثيف، فكل شيء غارق في الشحوب، شحوب الممرات، الصرخات، والعزْل عن تدفق نهر الضوء حتى من طاقةِ زنزانةٍ. جسد في الداخل يُرمم أجزاءه المتبعثرة، يلملم جراحه. كان الزمن ضائعاً في الزنزانة.

أن يُتْرَكَ يومين هكذا بلا أسئلة، بلا سياط، بلا عصّي، معنى ذلك أنهم انتهوا منه أو أوشكوا. كان سعد يستعيدُ ما فُقِدَ منه، يستعيد الدّم النافرَ على الجدران، صرخة الألم من السقوف الحالكة، وجه صديقه؟ ما الذي حدث له؟ كل ذلك الصمت المعرِّش حوله يُنذر بالشرّ. لقد كان الجرح بسيطاً، بسيطاً لا يمنعه حتى من عبور صحراء بأكملها وليل.

- توقّف وإلّا أطلقتُ النار.

- *من يستطيع التوقُّفَ، من يستطيع الهربَ؟!*

قيل لها قبل البدء بتنفيذ العملية، تحاشوا الاشتباك مع أيّ جندي عربي، هدفكم واضح هو ذلك المعسكر فقط.

التوقّف كان يعني السقوط في القيد، والهرب يعني السقوط في الغياب، في الطلقة. واللغةُ العربيةُ الآمرةُ اندفعت من فم الجندي كرشاشهِ..

- رشاش *لا يصيب الهدف بدقّة، إلاّ حين يستدير إلى الوراء.*

- توقّف وإلا أطلقت النار، صعدَ الصوت ثانيةً من رئة الصحراء مدوِّياً.

معادلة صعبة في صحراء ليس فيها غير رمل حارق تلوكه الريح. والتعليمات واضحة: *"مهما حدث، تحاشوا أيّ اشتباك"*.

كانت أي محاولة للاختفاء مثل فصل عبث ساخر.

- *كيف تركض في راحة جندي دون أن يراك؟!*

تذكّر سعد جسد خالد الضّخم الملقى على كتفه، نازفاً، لا يمكن إخفاؤه. قال: نتوقّف، فمهمّتنا انتهت بنجاح، ولا نستطيع أن نعود قتلى؟ نتوقّف..

كان الرّصاص قد دوّى فوق رأسيهما ممزقاً أفقاً هائلا من الصمت والرمل يُسمّى: الصحراء.

اندفع الجنود من كل مكان، أحاطوا بالجسدين المنبطحين على الأرض بحذر، أضاءت الكشافات وجهيهما.

- أي حركة، نطلق النار!

وجهاهما في التراب والجرح ترابياً كان، والوقت.

- استديرا ببطء.

وبكى جندي، فأطرق رشاشُهُ خجلاً. ذلك الجنديّ الذي أمرهما بالتوقّف، جندي الحراسة الذي أمرهما بالتوقّف، بكى، خجلاً.

- يا الله، فدائيين! صاح أحد الجنود.

وانخفضتْ الأسلحة واحداً بعد الآخر. جلل العار الصحراء، جللَ الجنود، والأسلحة.

اندفع أحدهم باتجاه الجريح مثل أُمٍّ تحاول إنقاذ طفلها في اللحظة التي تعثَّر فيها. حملوه إلى المعسكر القريب، حيث كل شيء كان قد استُنفر. سار سعد بينهم، وتحوّل الخوف إلى زهو، وهو يراهم يتحلّقون حولهما، يمطرونهما بالأسئلة: هل نجحتْ عمليتكم؟! كم جندياً قتلتم؟ ما هي الخسائر؟ هل استشهد أحد منكم؟ كيف أُصبتَ؟ وظلّ "حميدان"، ذلك الجندي، جندي الحراسة، يسير في نهاية المجموعة، أكثر خجلاً.

عمّت الحركةُ المعسكرَ كاملاً، اندفع بعض الجنود يحضّرون الحليب، الخبز، الضمادات، الأدوية، الماء، الطعام. نسوا أدوارهم المعدّين لها، أو تناسوها. فَرِحين كانوا، لم يدركوا بعد ما حدث، ما سيحدث، وظل حميدان خارج الخيام؛ هل كان يُدرك ما سيحدث قبل حدوثه، ناداه أحد الجنود.

- يا حميدان، تعال.

ولكنه كان خجِلاً، لم يستطع التحرُّك، لم يستطع الدخول.

تذكر حميدان أنه هنا منذ عشر سنوات، وهذه هي المرة الأولى التي يُطلق فيها النار، وإذا به يُطلقها حيث لا يُريد.

- يا حميدان، تعال.

لم يدخل، ظلّ هناك، قطعة كئيبةً من الليل الصحراوي.

في الخيمة كان الحبّ يتجاوز الأوامر العسكرية وينفيها، وفي الخارج، في غرفة اللاسلكي كان الواجبُ العسكريّ ينفي كلّ شيء. لقد تمهّل قائد المعسكر قبل أن يُبلغ الجهات الأعلى. تمهّل أكثر مما يستطيع. وجاء الصوت عبر الأجهزة، عبر ليل الصحراء، عبر رئتي حميدان: أبقوهما، وانتبهوا جيداً، نحملكم المسؤولية الكاملة بشأنهما.

أدرك حميدان أنهما سيكونان بعد قليل في قبضة قاسية، وتمنّى لو أنهما استطاعا الإفلات، كما أفلتَ غيرهما. دخل عامل اللاسلكي.

قال: يريدونهما، إنهم في الطريق إلى المعسكر الآن.

عمَّ الصمت، وفي لحظات اختفت أكواب الحليب، الطعام، وأُهيل التراب على الضمادات لتبدو قديمة، لم يبق من المعاملة الطيبة الأولى شيء، وعاد العار يجلل الجنود.

***

كيف يَحضرونَ بهذه السرعة؟! كيف؟! كأنهم كانوا في المعسكر لا خارجه. حضرتْ عربة ورجال أشداء مربدُّون، انطلقوا صوب الخيام، اختفتْ عيون الشابين خلف عصبتين سوداوين، كالساعة السوداء التي أطبقتْ على قلب العريف حميدان، فانطلقتْ طلقة، طلقة واحدة فقط، اندفع الجنود يركضون صوبها، كان حميدان قد فارق الحياة، صاح أحدهم: حميدان انتحر.

انتحر...

انتحر...

دارت الكلمة في ليل الصحراء الموحش.

قال قائد المعسكر: الرصاصة انطلقتْ خطأ.

دارتْ الطلقة التي اخترقت رأس حميدان، وظلّت تدور، وأدار السائق محرِّك السيارة القادمة، ودارت العيونُ تحت العصبتين السوداوين، في حلكة الزمان والمكان، كانت العصبة هي الزنزانة الأولى، وآخر ما تبلغه العين، لزمن طويل، من مدى.

حجراً مقدوداً من موجة ارتباك، كان الأنيق هناك. أحس سعد بأنه يقف أمامه منذ ألف عام.

أخذ الأنيق مقعده، اتكأ على الطاولة الخشبية، هل يصدأ الخشب؟! لا، ولكن الصدأ كان يغطي تلك الطاولة، وما لبث أن امتدّ وعَبَر كفيّ الأنيق نحو بقية أجزائه.

- ما الذي يفعلونه أكثر من ذلك؟ إذا كانوا يريدون قتله، فإن ذلك سهل، لقد قتلنا رفيقه، لقد مات رفيقه متأثراً بجرحه، جرح في القدم قَطَعَ عليه نصف الصحراء! لذا، كان لا بدّ أن يموت، التقرير الطبي يقول: الوفاة نتيجة تسمّم خطير في جرح قطعيٍّ عميق في القدم.

***

راح الأنيق يعمل بنشاط داخل الجرح، يشقّه، فيستجيب اللّحم بصعوبة، لحمٌ شابٌّ متماسك، كان يودّ أن يذهب بعيداً في التّمزيق، قيل له: ركّز على النقطة الضعيفة في المُعتَقَل!

ولم يَرَ الأنيق غير الجرح، النقطة الضعيفة الوحيدة.

بعد ليلتين وحشيتين من التحقيق، كان الجرح يتّسع أكثر فأكثر، والصراخ يرتفع كلما دبَّ الصحو في جسد الجريح. أحسّ الأنيق أن الجرح أصبح أكبر منه. تناسى أناقته. تدلّتْ ربطة العنق مثل أنبوب المصّ داخل

الجرح، ركض في الدّم، تجوَّل، استراح، تَعِبَ؛ وظلَّ الجرح يتّسع؛ ولم يتّسع فم الجريح ليسمح بمرور كلمة واحدة.. كان يصرخ فقط.

وعندما اكتشف الأنيق أن الجرح أصبح أكثر اتّساعاً مما يتصوّر، شمرَّ عن ساقيه وساعديه، وألقى بنفسه وسط بحيرة دم واسعة، حاول الخروج. تسلّق حافة الجرح، ثم تسلّق مرّة ثانية وثالثة، نجح في النهاية، استلقى لاهثاً على الأرضية منهاراً تماماً، وكان الجريح قد مات، مات تماماً.

***

كان سعد يحدّق فيه، والأنيق يحدّق بيديه، محاولاً الخروج من بحيرة الدم. اكتشفا أنهما يتبادلان النظرات، كيف التقيا في نقطة واحدة، هي قطرة دم في جرح مفتوح؟

نهض الأنيق ودار دورتين.

وقال: اعترفْ وأرحْني!

قال سعد: بماذا أعترف؟

قال الأنيق: قل أي شيء!

قال سعد: سأعترف! رغم كل شيء مازلتُ أحلم!

كان المحقق يريد أن ينقضَّ عليه بلكمة أخيرة. احتلّ الارتباك خطاه، عاد وجلس.

احتلّ الصمتُ كل شيء بينهما، من جديد: صدأ الطاولة، صدأ الأسئلة، ارتباك المحقق، شحوب غرفة التحقيق.

بعدها سقط رأس الأنيق على الطاولة.

ونام.. نام تماماً.

لم تجد فِتْنَة سبباً لأن يقوم أحمد بالكتابة في المطبخ، ولم تجد سبباً يُفهم لإغلاق باب المكتبة بكل إحكام.

بدأ يكتب ويكتب؛ وحتى، وسط بحيرة حَيرتها لم تجرؤ أن تسأله: لماذا تكتب هنا؟

قال لها مرّة، حين دَخَلَت المكتبة، وكان غارقاً في إحدى قصصه: أحبكِ، ولكن لا تعيديها. وأوضح: هنالك سبب وحيد يجيز لكِ مقاطعتي أثناء الكتابة.

قالت: ما هو؟

قال: الحرب العالمية الثالثة!

وفي الليل حين كان يحتضنها قال: أن يمنعكَ شخص من الكتابة في اللحظة التي تريد، أشبه ما يكون بأن يَصبَّ الباطون في فرج امرأة جاءها المخاض!

ولم تعد تقاطعه.

***

كان يكتب وكأنه ينتقم، ولذلك لم تجئ القصة بالمستوى الذي يريد، ولكنه كان يودّ أن يردّ، ويردّ بسرعة. نشَرَها بسرعة.

قال الجنرال: أرى أنك بدأت تفيد من لقاءاتنا معك!

- ماذا؟

- قصتك الجديدة.

أخيراً اعترف الجنرال أنه كاتب قصة. سرّه ذلك!

- لقد فكرتُ، مادمتَ تفيد إلى هذا الحدّ، فسنُكثر من هذه اللقاءات.

فَرِحَ الجنرال بالإصابة، كانت مباشرة، حيث اهتزّ الجسد أمامه، ترنّح، ولم يبق له سوى أن يسقط.

***

كان الجنرال في رحلة صحراوية، سيارات الجيب الإنجليزية تنهب الرّمل بعجلاتها. كان الغزال أمامه مباشرةً، مراوغاً. أطلق النار فلم يُصِبْه، وأطلق النار ثانية وثالثة ولم يصبه.

ولم يجرؤ أحد أن يُصيب الغزال الذي لا يستطيع الجنرال شخصياً أن يُصيبه.

أطلق من جديد، ثم صرخ: أحضروه إليّ فوراً، أريده.

بعد يومين من المطاردة كان الغزال، أو ما يشبهه، حياً بين أيدي حراسه ومساعديه.

في الممر الطويل أمام مكتبه، حدّق في الغزال، كان نظيفاً، بريئاً، متعَباً لا يستطيع الوقوف، فحوافره ذابت أثناء المطاردة.

قال الجنرال: أنتَ؟! وكان ينظر إلى الغزال باحتقار.

هتف: الآن إلى الصيد، تبعه حرّاسه ومساعدوه، ذهبوا في الصحراء أبعد من المعتاد، حتى لم يعد هناك صحراء في العالم أمامهم؛ وكأنهم يقومون بأقسى رحلة صيد في حياتهم، وفي نقطة بعيدة لمح الجنرال شجرة غريبة ووحيدة، وَصَلوها، فقال هنا نتوقف، نزل الجنرال، قال بمرح: الآن يبدأ الصيد!

هبَّ مساعده الخاص، أنزل الغـزال، ربطـه بالـشجرة، تنـاول الجنـرال البندقية، صوَّبها إلى الغزال، أطلق رصاصة واحدة، سقط الغزال في دمه.

قفز الجنرال فرحاً: أَصبته، ومن الطلقة الأُولى!

ثم التفت إلى حراسه ومساعديه وقال: رحلتنا اليوم موقّفة، الآن نعود!

وعادوا يحملون غزالا.

***

- يا أحمد، أنت أهم بكثير مما تعتقد. يجب أن تكون في المكان المناسـب. إنـك الآن أشـبه مـا تكـون بنهـر ضـائع في الـصحراء. لنعمـل سـوياً، وبصورة عملية مـن أجـل مواطنينـا. إذا لم يـدرك هـذا إنـسان وطنـي، أصيل، مثقف مثلك، فمن سيُدرك؟ لا تكن سلبياً على الدّوام، ما الذي يمكن أن تفعله بأُمسية تقرأ فيها عدداً من قصصك؟ صدِّقني، لا شيء، المهم في هذا العصر هو العمل.

يومها كان أحمد قد وصل إلى نقطة الانفجار: *سأضع قنبلة وأُفجر المبنى بمن فيه، بذئابه وشياهه.*

- يا أحمد. جاءه صوت الجنرال. إن كل وسائل العمل ضدّنا لم تـنجح، كلها كنستْها الريح، ونحن بقينا! تجاوزنا كـل العواصـف الدخيلـة لهـؤلاء الذين يدَّعون أنهم الوطنيون وحدهم؛ حتى أنهم يئسوا؛ تصوَّر، لقد وصـل الأمر بهم قبل أيام، قيامهم بطلب للسماح لهم بتنظيم مسيرة سلمية وصامتة! هل تلاحظ "صامتة" إلى السفارة الأمريكية، احتجاجاً على الدعم المتواصل الذي تقدمه أمريكا لإسرائيل، بعد قيامها بتسميم 943 شخصاً في الأراضي المحتلة، وظهور أعـراض وبائيـة خاصـة بـين طالبـات المـدارس الثانويـة. يقولون إن التكنولوجيا الأمريكية وراء الحادث، رغـم أن التقـارير العلميـة تقول إن ذلك راجع للقلق النفسي الجماعيّ بين مجموعة من النـاس تتعـرّض لضغط مستمر في ظروف الاحتلال. ليس هذا ما يهمنا يا أحمد، إن هـؤلاء لم

يعودوا قادرين على التنفّس إلا إذا قـدَّموا طلبـاً! ولكـن أصـارحك، إن مـا يزعجني حقاً هو أنهم ما زالوا يجرؤون على تقديم طلب كهذا!

***

هبط الجنرال درجات القبو، قبو الممرّ الطويل، قبـو اللانهايـة، منزعجـاً من تلك الصرخة التي أصبحتْ قـصة، منزعجـاً أكثـر مـن القـصة: *كيـف يستطيع هذا العَكر تحويل هذا الصوت المطوط الفَزِع إلى حكايـة؟!* تـذكّر محاولته لكتابة اعتذار، وإخفاقه، فازداد غضباً، عـبرت الإيقاعـاتُ الواثقـة للخطى الممرّ باتجاه غرفة التحقيق، حيث سعد، اقتربتْ.

- *سأحطمهما الاثنين، الكاتب والقارئ، أخيراً سأحطمهما.*

أشرع باب غرفة التحقيق، دخل. كـان سـعد واقفـاً هنـاك مـستنداً إلى الحائط، وكان الأنيق نائماً.

فُجع الجنرال، ليسَ هناك كلمة تُلخِّـص الهزيمـة في تلـك اللحظـة، إلا الفجيعة، المحقق نائم!

ولم يصح المحقق رغم أن الأصوات الصادرة عن الجنـرال والمـساعدين توقظ الميت من موته.

اقترب الجنرال من المحقق. هزّ كتفه: يكفيك نوم، حبيبي، اسـتيقظ، لا تكن كسولاً!!

واستيقظ المحقق أخيراً، يقظة لم يستطع النوم بعدها أبداً.

رحل شهر آب، ودخل أيلول وأطلّ تشرين الأول والدوْرة دائرة. انتهى التعذيب في القبو، وظل أحمد أسيرَ القاعة. أحياناً يأتيه الأمر في آخر الليل: مطلوب غداً! أحياناً يتبعه رجل بملابس مدنية نصف نهار، أو نصف ليل، ثم يحاذيه أخيراً ليقولَ له وهو يمرّ بجانبه دون أن يتوقّف: لا تنس أن تمرّ غداً!

وأحياناً يطرقون الباب ليلاً: ستشرب القهوة صباحاً مع الجنرال!

***

ضحكَ أحمد الصافي فجأة، ضحك كثيراً، حتى اجتمع الحراس، اندفعوا عبرَ الممرات صوب القاعة، هستيريا الضحك، هيروشيما الضحك.

ضحكَ حينما اكتشف أنه تعرّف إلى سكان "البلد" كلهم في تلك القاعة، القاعة التي لا بدّ أن يمر بها الجميع ويتمرمط فيها الجميع.

فجأة، تمزقت أعصابه، مضغتها طحالب مجنونة. أحسَّ أن المكان رطب، وأن العفن بدأ ينخر جلده. جلده! تذكّر البُقع السود. لم تعد كما كانت في البداية، راحت تتلاشى تدريجياً. بعد أسبوع سيكون بإمكانه أن يخلع ملابسه في الضوء ويصعد طرف السرير ويُلقي بنفسه مثل سبّاح في حضن فتنة! عارياً، عارياً، كورقة بيضاء لم يمسسها سوء: *أُسبوع وينتهي كل هذا القرف!*

كان ما يزال طليقاً في هستيريا الضحك.

وصلت الجنرال أخبار الضجّة، قال لمساعده الخاص: هاتوه.

وكانت عدوى الضحك قد عصفتْ بالبشر المتراصين في القاعة.

ضحك

هستيريا

هيروشيما

الضحك

ضحك

لم يعد أحمد يحتملُ أكثر من ذلك.

- ما الذي يريدونه؟! مناقشات سخيفة في مقالات أصبحتْ سخيفة، مقصقصة الأجنحة؟ مرة يقول لك الجنرال: لماذا لا ترى إلّا الأشياء السلبية، ألا يوجد شيء إيجابي واحد تكتب عنه؟ لماذا تكون مُرّاً دائماً؟ ومَرةً يقول لك: يا أحمد، ما هذه الهرطقات، تُطالب بإنشاء مكتبات عامة في كل المناطق، وتنسى حقيقة أن الناس لا يقرأون! أتريدنا أن نبدّد أموالنا على المَظاهر؟! إن إقامة سجن جديد يُعزز الأمن عندنا ويفيد المجتمع أكثر من إنشاء مئة مكتبة. يجب أن تفهم، الشباب يحبّون الأفلام الهندية وأفلام الكراتيه والعنف، ولا يحبون، صاحبك هذا، ما اسمه؟ فوكنر! ثم ما الذي يضحكك إلى هذا الحدّ، تراك تسخرُ منا، أم ماذا؟ أحمد، لم نعد نحتملك، تعرف أن بإمكاني دائماً أن أغلق باب الدنيا في وجهك!

انشغلَ أحمد في مسألة "باب الدنيا": *أين يوجد قفْله؟! المفتاح؟! العتبة؟! عرضه؟! ارتفاعه؟! وحين يُغلق باب الدنيا في وجه الإنسان، هل يكون خارج الدنيا؟ أين؟! وكيف يستطيع الجنرال الوصول إلى المفتاح وهو بهذا القِصَر؟ كيف سيديره؟!*

وعاد صوت الجنرال: *نعم، بإمكاني أن أُغلق زاويتك، صحيفتكَ، والشارع الذي تمُرّ فيه، المدينة، والبشر! باستطاعتي إغلاقها، أطرد امرأتك*

من عملها، وطفلكَ من روضته! طفلك، تذكَّر طفلك؟! على الأقل ارحمْهُ. ما اسمه؟!

كان الجنرال قد سأله من قبل عن اسمه.

- فارس.

- نعم تذكَّرت، فارس. فكِّر في كل هذا، قال الجنـرال، واحـضر غـداً. أُريد إجابات، إجابات!

***

في الصباح نهض أحمد الصافي مبكراً، هذه عادته منذ زمن، يصحو قبـل زوجته، ينسلُّ مـن فراشـه، ويـدخل ملابـسه كـسلحفاة. يحْشُر جسدَهُ في القوقعة، في القمصان ذات الأكمام الطويلة، التي لم يكن يطيقها قبل صيف.

وتقول فتنة: لديك قمصان، نصف كُمٍ!

يقول: طقس هذه السنة عجيب، ترى الفصول الأربعة في يوم واحد!

انسلَّ بعيداً، فتح المكتبة بحذر وبصمت، دخلَ، تصفّح الجدران، يبـدو أن الحبر بدأ يتلاشى تدريجياً، عاد وأغلقها. تسلل إلى الحمام، أشعل الضوء، خلع ملابسه كلها، ألقى نظرة سريعة على جسده. استيقظتْ فتنة، واستيقظ فارس؛ سَـمِعَ صـوتها تحدِّثـه، لم تـصل الكلـمات واضـحة، خـرج مـسرعاً يستحثُّ الدقائق أن تعدو، أن تفلت من مـسارها لتـشقَّ الـزّمن بـأسرع مـا تستطيع. وكان هادئاً كما لم يكن في أي يوم من الأيام.

خليطٌ من الهدوء والتوتّر.

مُرعِباً كان.

***

- الجنرال يريد إجابة اليوم!!

نظر إلى فارس، للحظة كان سيقول لفتنة أنه سيوصِله إلى المدرسة، ثـم، ثم يبتعد به و ...! لا لن يستطيع أن يفعـل ذلـك! الطحالـب تـستطيع هـذا الافتراس، القطط تستطيع، الكلاب ربما، هو، لا يستطيع!

تركها تأخذه. قبَّله الصغير. أحسَّ أحمد أنها المرة الأولى التي يقبلـه فيهـا طفل، وليس أي طفل، طفله هو، فارس.

تسلَّقتْ جسدَهُ كلُّ النباتات اللزجة، أحكمتْ الحلزوناتُ رخاوتها فيه، الدّود، العفن، واشتعلتْ البقعُ تحـت جلـده؛ عـادَ إلى الحـمام، تأمّـل البقـع السود، لم يستطع أن يجزم إن كانت بهتت فعـلاً، أم أنـه يحـاول إقنـاع نفـسه ليستريح! عاد وفتح باب المكتبة، لم يعد ثمة شيء يمكن أن يتأكد منه تمامـاً، عاد له صمته المرعب.

كان يمكن أن يتحدَّث ليكسر هذا الصمت، ليهـشِّمه، ولكـن لا أحـد هنا. اتّقدت عيناه، تـسمّرتا في نقطـة لا مرئيـة في فـضاء غـير محـدّد، مـشى كالنائم، دخل المطبخ، استلَّ سكيناً، دسّها في الجورب الأيمن تحت البنطال. طرق باب مديرةِ الرّوضة.

- أنا أحمد الصافي.

- أهلاً أستاذ. فرصة سـعيدة. سـعيدة جـداً أن نـراك، هـذا فخـر لنـا، تفضّل.

- شكراً، مضطر للذهاب، ولكنني لسبب طارئ أريد أن آخـذ فـارس معي.

- لا بأس أستاذ أحمد، فارس ولد ذكيّ، لن يُضيره غيابُ يوم واحد!

كانت كل كلمة تقولها المديرة تمزِّق لحمه، وتنشرُ عظمَهُ. كـان يريـد أن يتوقّف سيل المديح.

فكّر أن يتراجع: *لا، لا أُريده! أُريده، بل أُريده!*

- إنني مستعجل قليلاً.

- فوراً أستاذ أحمد.

وجاء الآذنُ بفارس. كان الصّغير يتقافز فَرِحاً من تأثير أُغنية جماعية تركها خلْفه تملأ غرفة الصف.

- قال للمديرة، أرجو أن تحتفظي لديك بحقيبته!

على باب مقر الجنرال، كان أحمد الصافي، أشدَّ إرعاباً في صمته! سأله الطفل في الطريق: إلى أين ستأخذني يا أبي؟ سأله بفرح.

ثلاث سنوات ونصف، عمر البراءة. البراءة عمرها ثلاثُ سنوات ونصف السنة، لا أقل ولا أكثر!

قال له الحارس: إلى أين؟

- إلى مكتب الجنرال.

- ولماذا أتيت بهذا الولد؟ ألا تعرف أن دخول الأطفال ممنوع؟!

- طلبني الجنرال، ولا أستطيع ترْكه في أي مكان.

احتار الحارس، نظر إلى الطفل، صغير. رفع السماعة وتحدَّث مع مكتب الجنرال: سيدي هناك شخص اسمه أحمد الصافي، حضر و ...

- ... !

- ولكن معه طفل صغير، يقول إنه ولده.

- ... !

- *سيحتار الجنرال. سيفرح، سيحزن.* قال أحمد الصافي في قاع صمته المرعب.

لم ينتظر طويلا في القاعة، طلبه الجنرال. صعد.

- أعرف الطريق، قال للمراسل الذي جاء ليوصله، أعرفها.

في يده الطفل، والطفل يسأل: إلى أين تأخذني يا أبي؟

غرق المساعد الخاص في بحر الأسئلة: *طفل هنا، إنها المرة الأولى! هل قررَ الجنرال استدعاء الأطفال أيضاً والتحقيق معهم؟ الاحتياط واجب، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج!*

اندفع الجنرال صوب الطفل ما إن رآه يجتاز عتبة مكتبه، أخذه بين ذراعيه، رفعه في الهواء!

- طفلٌ عظيم، جميل، ألم أقل لك يا أحمد، يجب أن تفكِّر فيه جيداً. في مستقبله، كيفَ سيدرس، يأكل، يعيش؟! أتعرف، جاءتني فكرة! يمكننا أن نستغل الوقت، وألا نؤجل عمل اليوم إلى الغد! ونحجز له وظيفة مهمّة منذ الآن! وسأل فارس: ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟!

- طيّار!

- خلاص، اعتبر نفسك طيارا منذ الآن! ولكي تكون مطمئنا كما لو أنك على رأس عملك! سأوصي بصرف راتب طيار لك منذ الآن!

وظلّ أحمد الصافي صامتاً، وقد اتّسعتْ دوائر الرّعب الكامنة في عينيه.

عاد الجنرال إلى مكانه خلف مكتبه، وجلس.

- ماذا يحب أن يشرب فارس؟ ماذا تحبّ أن تشرب؟

اتسعتْ دوائر الرّعب أكثر وأكثر، احتضن أحمد الصافي ولده، نهض، أبعد تلك الأدوات الصغيرة التافهة عن طاولة الجنرال، جانباً: الأقلام، المحابر، الأوراق، الأضابير. أخذ الطفل بين يديه، وأجلسه على الطاولة، كان الطفل مُستسلماً تماماً. لحظتَها رأى أحمد الصافي للمرّة الأولى نظرة خوف في عينَي الجنرال!

قال أحمد: تهدّدني بقطعة اللحم هذه؟! وأشار إلى الطفل برأسه، بخبزه؟ بروضته؟ بأمّه؟ بي؟ بالقاعة؟ بالصرخة؟ بباب الدنيا؟!

لم يستطع الجنرال الإجابة، انعقد لسانه، وتسمَّرَ في مكانه، لم يعد قادراً على الحركة.

انحنى أحمد الصافي، رفع طرف بنطاله، تناولَ السكين، استلَّها من الجورب، سكيناً لامعةً كالبرق، وكالبرق هوى بها على عنق الطفل، فتفجَّر الدّم نافورةً! ظلّتْ تعلو وتعلو حتى احتلت كل سماء المدينة، وتساقطتْ غيوم الدّم في كل مكان، كل مكان!

- بعد اليوم لن تستطيع تهديدي بشيء. بعد اليوم، أنا حرٌ منكَ، من قاعتكَ، لن تستطيع تهديدي، لن...

سقط الجنرال، لكن أحمد لم يستطع أن يَفرح بسقوطه، عاد ينظر إلى الطاولة، فرأى الصغير هناك، يحدق إليه بنظرة مُستسلِمَة ذاهِلة.

لم يزل بعد على قيد الحياة.

حاول الصغير أن يقول شيئا، أن..

ولكنه مات، مات، هكذا، ببساطة..

احتضن أحمد جثة ولده بصمت مُرعب، التفتَ إلى الجنرال، وصرخ، صرخ!

توقّفتْ حافلةُ المدرسة الخاصة، هبط فارس فَرِحَاً منها، راقبه أحمد الصافي من خلف الزجاج الأسود يتقافزُ بجذل واضح. نفس حركاته عندما كان في الثالثة والنصف من عمره! طروب، مندفع؛ تتغيّر ملامح كثير من الأطفال، ولكن ملامحه ومنذ ولادته، ظلتْ كما هي، تندفع بشغب طفليّ نحو براءة لا نهائية، نحو الطفولة الكاملة.

- قلت يكمل براءته في سنته الثانية، ثم في الثالثة، في الثالثة والنصف، ولكنه ظلَّ يصعد، يشقُّ قلبي كلّما أطل. لم أنتظر مولده، ولكنه أطلّ.

قالت فتنة: تحبه أكثر مما يجب.

ولم تكن فتنة تحبه في البداية.

كانت تحسّ بأنه قيدها، فهي لن تنسى تلك الليلة.

قالت لأحمد: كن حذراً، لأن احتمال الحَمْل وارد هذه المرّة. ولكنه فجأة وجد الحلّ، وهو يلهث فوق صدرها:

- أن تحمل وتلد وترعى طفلاً، سيطفئ ذلك الكثير من جمرها واندفاعها، هذا الاندفاع الذي لم يعد قادراً على مجاراته.

بعد الزواج بأيام قالت له: أتمنّى الذهاب إلى أثينا الآن. وكان الطقس حاراً.

سألها: لماذا؟ وهو يتوقّع عديد الإجابات التي تبدأ بزيارة الأكروبُلس وتنتهي بالجُزر؛ إلا أنها قالت، لأخلع "صدريتي" وأترك نهديّ حرَّين تحت القميص!

.. وجاء فارس، وظلت تحسّ دائماً أنه لجامها المتّصل دوماً بذلك النتوء اللحمي لأحمد.

لكنها أحبّته في النهاية، كما أحبّه.

- كل الناس يحبون أبناءهم. وأنا أحب براءته. الآن تبدو براءته أصفى وأكثر عمقاً، براءة بيضاء مثل جناح أبيض، يشقُّ غيمة بيضاء في سماء واسعة. تساءلتُ دائماً: أين تذهب براءته، أين تصل، ما المدى الكونيّ الذي يمكن أن تبلغه؟ حاولتُ أن أتذكّر طفولتي أكثر من مرّة، وحاولتُ أن أنساها مراراً. سأنساها. ما هو المُفرح فيها كي أتذكَّرها؟ كتبتُ ضدها، أكملتُ دورتها الناقصة في "عيون الصقر". كل ما لم يكتمل في تلك الأيام البعيدة أكملته في "عيون الصقر"، عيون الصقر التي لم يكن يلزمها شيء لتعرّي العالم، مثلما يلزمها -فقط- أن تراه دوائر ناقصة. أحد النقاد اكتشف اللعبة، ورأى الدوائر تكتمل بنقصانها، كان ناقداً مبدعاً، ولكنه مات أيضاً.

ويركض فارس ببراءة فرسه الأسطورية، التي لا تهدأ.. يطير!

- تساءلتُ كثيراً، هل أخاف عليه حقاً، أم أخاف على براءته، وإلى متى سيبقى قابضاً على عنق الكون وقلبي، دون أن يتغيّر؟ نعم للناس حق الحسد في هذه المسألة!

***

حدَّق أحمد فيما حوله، ألقى نظرة سريعة وهو يتّجه إلى الباب: *لقد تمتْ الأمور واكتملت! كلمتان اثنتان لم تقلبا الدنيا، ما زالتْ كما هي، بل إنها أصبحت أفضل بكثير، المهم ما في داخلي! منصب "مدير التحرير" منصب كبير، في جريدة كبيرة. لم أتنازل!*

- ولكنك دفعتَ الثمن! تدفعه؛ تكتبَ وتمتدح الجنرال يومياً. هل هي مصادفة أن تُكلَّف بكتابة كلمةِ الصحيفة يومياً؟! الجنرال يراك في الحبر الأسود، يراك وأنت الغائب.

- ولكنني لا أُوقِّع باسمي! ولو لم أكتب أنا لكتب آخرون يتمنّون ذلك! هذا الجزء من عملي صنعةٌ، حرْفة، أما القصص، فهي الأساس!

- من يقول ذلك؟

- أنا!

- أنت، أم الجنرال؟

- المنطق!

- المنطق؟!

كان الجرس يرنّ طوال الوقت، اندفعت فتنة باتجاه الباب. في طريقها التفتتْ إلى أحمد قالت بعصبية.

- لماذا تقف هكذا، ما لك؟!

***

نبح الكلب في الشرفة المجاورة، في بيت الجنرال، نبح مرة، اثنتين ثلاثاً، قبل أن يسمعه أحمد الصافي.

عبر فارس الممرَّ حيث يقف أحمد، احتضنه، رفعه في الهواء.

- قبيح، أن يكون لنا أطفال بهذه البراءة في زمن المذابح!

حواري معك سيطول أو يقصر يا أحمد، حسب إرادتك! أترى؟ إنك حرٌّ! إرادتك هي التي تتحكّم في طول اللقاء أو قصره، لا إرادتي! أنت أكثر حرية مني! تصوّر؟! أعرف أن استمرار زياراتك لنا ثلاثة أو أربعة أشهر قاسية! أقصد قدومك وذهابك؛ ولكنني فكّرت في أن أصرف لك بدل تنقلات. أو أوصي بشراء سيارة لك!

لولا الضغط الثقيل على أعصابه، لتذكَّر أحمد أنه كان يستحق أفضل مما هو عليه الآن! أفضل من رئيس التحرير، هذا الذي قفز فجأة وإذا به يحتل عرش الصحيفة بين ليلة وضحاها. أما أحمد فهو كاتب، وكاتب معروف وأكثر شهرة وأكثر موهبة من كل رؤساء التحرير في البلد، ومن الطبيعي أن يكون في المكان الأفضل.

ولكن "عيون الصقر" ما زالت تشدّه و"قامة الرمح" أيضاً.

فَقَدَ الصبر مرات، وفي مرتين ذهب في خياله أبعد من اللازم. فكَّر بتهريب حبل إلى القاعة، ليشنق نفسه احتجاجاً، بعد أن يكون قد كتَبَ رسالة يوضِّح فيها ما حدث، ما يحدُث له.

يصعد المقاعد الطويلة، بعد خلوِّ القاعة من هذا الوطن! من الشعب! ويعلِّق نفسَه في حديد الطاقة العالية..

أبعدَ الفكرة.

- قل لي أحمد: هل تؤمن بهذا البلد؟!

- نعم.

- حديثنا في بدايته، دعنا ننجز شيئاً، دعنا نعمل معاً من أجل بلد أنت تحبه وأنا أُحبه!

كان أحمد الصافي قد تَعِبَ، قال: سأمضي في الحوار لعله ينتهي!

- أحمد، هل تؤمن بكل ما في هذا البلد؟ لاحظْ كلمة "بكلّ".

جفَّ ريقه: *هل يؤمن الجنرال بي؟ المحقق، ترفَّع عن إيمانه بحشرة.*

كان أحمد سيسأله: *هل تؤمن بي؟ لم يجرؤ.*

رد: نعم. نعم أؤمن!

انتظر أحمد الصافي السؤال التالي، لكن الجنرال، فاجأه: شكراً أحمد، من اليوم سنعمل معاً، تستطيع أن تطمئن، لقد انتهتْ مقابلاتنا.

- انتهت؟ كيف؟ لا، لا. لا يجوز أن تنتهي هنا؟

تجسَّد الكابوس؛ فجأة، طفت البُقع السود، قفزتْ كأنها تنتعلُ أحذية زنبركية، قفزتْ مثل طلقة، تجاوَزَت القميصَ الأبيض، السترة البيضاء. صُعِقَ الجنرال، صعق أحمد الصافي.

ضغط مفتاح الجرس الكهربائي، وصرخ.

حضر مساعده الخاص.

قال: أوصل الأستاذ أحمد إلى المغسلة.

رأى المساعد الخاص البُقع، نظر إلى الطاولة حيث قنينة الحبر، لم يرها. الجنرال يعبئ الحبر بنفسه في أقلامه، مرةً قال لمساعده: إذا ما عبأ لي أحد الأقلام فإنني أحس بأنه يُملي عليّ ما أكتب!

نظر إلى يدّي الجنرال -ربما رَشَقَه بالحبر في موجة غضب- كانتا ناصعتين.

احتل الفزع عيني أحمد الصافي من جديد. كان واقفاً وينظر إلى ملابسه، البقع أقل ظهوراً على البنطال.. كان كحلياً.

سار كالنّائم خلف المساعد الخاص للجنرال، ولكنه لم يستطع الـدخول إلى الحمّام، لم يستطع أن يمنع قدميه مـن أن تواصـلا المـسير. دخـل المـساعد الخاص أمامه، انتبه متأخراً إلى أن أحمد الصافي ليس وراءه.

ظلَّ يواصل مسيره، بلا إحساس، باتجـاه البوابـة، البوابـة التـي يعـرف المخـارج المؤديـة إليهـا؛ ظـل يمـشي، يقطـع الـشّوارع، يتجـاوز العربـات وتتجاوزه، إلى أن وجد نفسه تحت نـافورة بـشعة في حديقـة عامـة. النـاس يحدِّقون فيه. الماء غزير، طعمه لاذع، ماء دار آلاف الـدوْرات عـبر النـافورة مثل "افتتاحية" مكرّرة. أفاق أخيراً، ركض باتجاه البيت، لم تكـن فتنـة قـد عادت، لم يكن فارس قد عاد.

- كلُّ شيء سيذهب سدى، كل شيء عُرضة للريح، لم يبقَ إلاّ أن تخلع بنطالك. ورغم ذلك، كل شيء سيذهب سدى!

دارتْ الشائعاتُ قويةً، وكانت مدعَّمة دائماً بحجة دامغة، أثبتها الزمن: هل كان للجنرال يوماً، جيران؟!

كان الجواب دائماً: لا.

ابتدأ الهمس يتصاعدُ بين الجارات، بين أطفال "ضاحية الغابة": سيقومون بترحيلنا فور انتقال الجنرال للسكن في بيته الجديد، وربما قبل ذلك. كلما ارتفع حجر جديد في بيت الجنرال، انهدم بيت في داخل واحد من سكان "ضاحية الغابة"، ولكن الغابة نفسها، ظلَّت غابة، اجتُثَّ الكثير من أشجارها، وظلت خضراء..

- مسألة أمنيَّة، هكذا يقال، ولكنهم سيعطوننا تعويضات، وربما إذا حالفنا الحظ، منحونا أرضاً من أملاك الدولة.

بدأ الحديث في الضاحية. علمت به الجاراتُ قبل أن تعلم به الصحافة! سألته فتنة، وقد عاد لها، للمرة الأولى، خوفها القديم: هل صحيح أنهم سيقومون بترحيلنا من هنا فور انتقال حضرته؟

طمأنها: الجنرال يحاول هذه الأيام أن يبدو أكثر شعبية، وسكنه بين الناس في ضاحية مثل "ضاحية الغابة"، دليل أكيد على ديمقراطيته.

قالت: حكيْ! الناس يقولون إنهم سيرحِّلوننا.

- ولكنني لم أسمع بذلك.

غضبت فتنة: لم تسمع؟! يبدو أن نساء الحارة يعرفن أخبار البلد هذه الأيام أكثر مما تعرفها الصحافة!

***

كانون الثاني لم يزل دافئاً على غير عادته. انقلابات الطقس تُذكّر بالانقلابات العسكرية العربية في العقدين الماضيين، تغيّرتْ تضاريس الغيم، تضاريس الريح، شبَّت الغابةُ نظيفة.

كانون الثاني، مائدة مستديرة يجتمع عليها فرسان الفصول!

- لا شيء يبقى على حاله.. لم يبق إلا أن تخلع بنطالك! يركبونك كل يوم، ولم يبق إلا أن تخلع بنطالك! يركبونك مثل بغل كسول، ويستحثّون كلماتك أن تكون أكثر حرارة، يستحثونك أن تخرجَ إلى السطح وتكتب باسمك كاملاً "أحمد الصافي" .... إذا كان ذلك يُنقذ البيت، سأكتب!

***

تحلّقوا حول الطاولة البيضاوية: فتنة، فارس، وأحمد.

كان الطعام جاهزاً: أصناف كثيرة اجتمعتْ في ترتيب متقن، مثل افتتاحية مصاغة بدقّة. مدّ أحمد يده باتجاه سلّة الخبز. رغم التّغيرات كلّها، بقيت هناك عادة واحدة، لم تمحها سنواتُ العزّ، سنوات العزّ التي تمثَّلتْ في اندفاع الرّاتب إلى أعلى درجة يمكن أن يبلغها راتب في صحيفة، ووداع الحارة الترابية، الغرفة السوداء، احتجاجات فتنة وتأففها الدائم. عادة واحدة بقيت: أن يبدأ بالخبز، وألّا يأكل شيئاً إلا بالخبز، حتى أنه كان يمكن أن يُغمّس الخبز بالخبز دون أن يشكو!

كان الصمت يذرع الغرفة، غرفة الطعام، الطاولة، لا يبدده إلّا ارتطام الملاعق بالصحون.

- هل سنرحل من هنا؟ سأل فارس.

أجاب أحمد قاطعاً: لا.

ولكن الأسئلة كانت تنهش أحشاءه" هل سيذهب كل شيء سدى؟ هل هي إشاعة، مسألة الرحيل؟ هل يطلقها رجال الجنرال، فقط، لتصلني؟ لقد قيل لي إن الجنرال لم يزل غاضباً، لأنني لم أكتب حتى اليوم كلمة واحدة وأُوقِّعها باسمي. سأكتب، نعم سأكتب، لماذا لا أكتب؟ فهو قادر بكلمة واحدة على اقتلاع كل ما بنَيتُ، وإذا أراد ألّا يعوض عن البيت، فمَنْ يمنعه؟ ثمَّ، ثم إن التعويض غالباً ما يكون دون السِّعر الحقيقي!

***

كان يصعد الدرجات باتجاه مكتبه في الجريدة، في ذلك اليوم البعيد، ليقرأ الصحف، ويكتب زاويته اليومية.

أوقفه المدير الإداري.

- أستاذا أحمد، اتبعني.

تَبِعَهُ..

وقفا أمام باب ثُبتتْ عليه لوحة صغيرة، كُتبَ عليها بحروف سود أنيقة "مدير التحرير"!

ارتبك أحمد الصافي، وقبل أن يدخل شدّ المديرَ الإداري من يده، سأله: أليس هذا هو المكتب الجديد لرئيس التحرير كما كان يقال؟!

- لا.

- هل استحدثوا منصباً جديداً في الجريدة؟

أومأَ إليه المديرُ أن يسكتَ، فسكتَ.

أدار المفتاح في القفل، دخل، تبعه أحمد الصافي.

كل شيء طالعه جديداً: الطاولة، الكرسيّ، السجّاد، دهان الحائط الأبيض، آه الأبيض! لوحتان متوسطتا الحجم، الأولى تمثل مجموعة من

الكلاب المفترسة تهاجم غزالاً، والأخرى لوحة تمثّل دونكيشوت يتبعه رفيق مجده سانشو بانزا!

قال له المدير الإداري: هذا مكتبك. من اليوم ستبدأ عملك من هنا.

- ...

تحرّكت في أحمد رغبة وحشية مفاجئة للتبوّل، لم يستطع مقاومتَها. امتدتْ يده إلى سَحّاب بنطاله، أمسك عضوه، كان محتقناً، على وشك الانفجار. اندفع سيل جارف على سجاد المكتب؛ دخل أحمد الصافي اللعبة مثل طفل، وجَّهَ سيلَهُ إلى الطاولة، بدأت تغرق تحت اللون الأبيض المُصْفَر ودهشةِ المدير الإداري!

كل شيء اختلط بالبول.

ولكن مثانته كانت قابلة لأن تُعطي أكثر وأكثر!

اتَّجه نحو الباب. خرج، شاقاً طريقه بحربته المندفعة وملبيا نداءها الطليق، نداءها الذي وجد نافذة يطلُّ منها على كل هذا الخراب! دار في الممرات. المدير الإداري يتبعه، يصرخ، يهزّه ليصحو: أستاذ أحمد، أرجوك.

قطَعَ أحمد الممرَّ الأول ثم الثاني فالثالث، فالرابع، كان يطوف كاسراً قدسيّة كل طواف.

أطلّت الرؤوس من الأبواب، صرختْ عاملات الأقسام الإدارية والمطبعة، وظلَّ الرّمح مندفعاً في ثورته!

من أين يأتي كل هذا البول؟!

استدار باتجاه البوابة الرئيسة، نحو الشارع الكبير، وقف في أعلى الدرجات، وهناك أطلق الرشقة الأخيرة على الجدران الخارجية للمبنى في حركة نصف دائرية، قبل أن يعود إلى مكتبه!

مكتب "مدير التحرير".

سأله المدير الإداري: أستاذ أحمد، هل تحتاج شيئاً؟

- نعم؟!

- أستاذ أحمد، هل تسمعني؟ هل تحتاج شيئاً؟

- لا.

وخرج.

***

قال الجنرال لمساعده الخاص: لقد اكتشفتُ أنني أضعتُ الكثير! كان عليَّ أن أُلقيه في التجربة منذ البداية. هناك نوع من البشر يأكله الحرير أكثر مما يأكله الصدأ.

***

بعد خروج المدير الإداري ظلَّ واقفاً لفترة طويلة، محدّقا في اللوحتين. لم يدرِ كم مرَّ من وقت. فَرِح، حزن، احتار، وظلّ واقفاً.

قال: *مَنْ يستحق هذا المنصب أكثر مني، مَن؟!*

قال الجملة وكأنه يتحدّى العالم ويدعوه لمبارزة: *مَنْ؟!*

عندها قرر الجلوس، فرحاً بمنصبه الجديد.

عندما استقر فوق مقعده، ارتفع وانخفض مرتين أو ثلاث مرّات ليتأكَّد من فخامة الكرسي، وعندما تناول الصحيفة ليطالع العدد الجديد، بعد أن أشبع الغرفة ونفسه تأملاً، وأصبح بإمكانه أن يُغمض عينيه فيرى هندسة موجودات الغرفة، دخل عليه المدير الإداري -لم يعرف إن كان طرق الباب أم لا- بين يديه شيءٌ ملفوف بأوراق وردية بعناية بالغة. كان أشبه ما يكون بصندوق شكولاته كبير، من ذلك النوع الشّعبي الذي يحمله الناس معهم حين يذهبون لتهنئة الطلبة الناجحين، والمرضى الذين عادت لهم صحّتهم، والعائدين من السفر والحجِّ سالمين!

تناول الصندوق من بين يدي المدير الإداري. أدرك أنه لن يكون صندوق شكولاته أبداً، كان ثقيلاً.

- بدأ بفضِّ المغلف بهدوء وإتقان. اشتعل فضوله، فمزّق الورق الورديّ بسرعة، وعندها لمعت عينان يعرفهما جيداً، توقَّف، ولكنه عاد وأطلق لأصابعه العنان لتمزق الورق كاملاً، فأطلَّ الوجه واضحاً: وجه الجنرال.

ابتسم المدير الإداري..

- أستاذ أحمد، لقد أعددنا المكتب، كل المكتب، واخترنا اللوحات، وعلقناها في الأماكن التي اعتقدنا أنها مناسبة، أما هذه الصورة فنعتقد أنك أنت الذي يجب أن يختار المكان الذي تُعلَّقُ فيه، لذا أتركها لك!

وخرج..

نبح الكلب، يبدو أن الجنرال تأخَّر اليـوم في إحـضار الطعـام لكلبـه. أمس لم يحضر، وقبله لم يحضر، والكلب بدأ يتفلّت، بدأتْ أحشاؤه تتـصارع في الداخل محاولة التهام بعضها بعضاً.

وكان أحمد وفتنة وفارس يتناولون طعام الغداء.

كم مرَّة فكَّر في أن يقتـل الكلـب، ولكنّـه في النهايـة أدرك أن مـصيريهما مجهولان، متشابهان. أحسَّ أن عليه واجب القيام بإطعام الكلب، أن يقتطـع له من حصته، أن يُشرع الباب ويمضي إلى الشرفة، حيـث الكلـب مربـوط. ضربَ على الطاولة، فاهتزَّت الصحون، الملاعق، كؤوس الماء، سلَّة الخبـز، فتنة وفارس، قال: الكلب سيموت.

سألت فتنة: لماذا؟

قال: الجنرال مسافر. كيف نسيتُ أن الجنرال مسافر؟!

كان أحمد قـد راقـب الجنـرال، ومواعيـده المدروسـة لإطعـام الكلـب، والجنرال مسافر: *هل من الممكن أن يكون قد أرسل الطعام سرّاً إلى الكلب؟ ولكن الكلب ينبح، نباحاً مجروحاً.*

سألتْ فتنة ثانية أو رابعة: هل تعتقد أن الجنرال سيجعلنا نرحل؟!

ازداد تعاطفه مع الكلب، حمل صحنه الخاص بـما فيـه، وقـررَ أن يغـامر ويذهب.

فتح الباب، خرج، تجاوز عيون الجيران التي أطلَّتْ من الشبابيك. صعد الرّصيف الصاعد باتجاه بيت الجنرال، أحسَّ الكلب بالرائحة، لا بدّ أنه أحس بها، اشتدَّ نباحه، فازدادتْ خطواته اندفاعاً.

- كيف يمكن أن يُضحي الجنرال بالكلب؟! كيف ينساه حين يسافر؟! هل يمكن أن ينسى إلى هذا الحد؟!

صعد الدرجات..

التقت العيونُ للحظة، توقّف النباح، وتوقّف أحمد الصافي.

هل عرف الواحد منهما الآخر، أكثر، عن قرب؟! صمتا، كأنهما فهما ما يدور فيهما في هدوء النظرة الدامي.

وراح يصعد الدرجات من جديد.

توقَّفتْ سيارة خلْفَهُ، أنتبه أحمد، توقَّف.

هبطَ المساعد الخاص للجنرال.

- هل قررتَ تسميم الكلب، أستاذ أحمد؟!

- أنا؟ أبدا، ولكنني خشيتُ ألاّ يحضرَ أحد لأن الجنرالَ مسافر.

- أستاذ أحمد اطمئن، الجنرال لا ينسى كلابه!

***

تمنى ألا ينساه الجنرال!

عالياً دخلَ أحمد الصافي القاعة، دقائق وتبدأ الأمسية. هذه الأمسية المعجزة، التي بذلَ منظِّموها الكثير من وقتهم وأعصابهم ومعارفهم من أجل الحصول على تصريح بإقامتها.

كم مرّ من زمن على إقامة الأمسية الأخيرة؟! هو نفسه لا يعرف. ولكن هذه الأمسية جاءتْ من حيث لا يدري، سقطتْ عليه من السماء حجراً حرَّكَ مياهه الرّاكدة! لم يكن يعرف هل يقبلها، أم يعتذر! لم يكن لديه جديد يُقرأ، ولم يكن قادراً على تصوِّر حجم الإقبال عليها.

حائراً دخل القاعة حيث رُتِّبتْ الكراسي الحديدية، على شكل حذوة، حذوة حصان عملاق يُطلُّ من أُسطورة.

قلّة من الحضور كانت هناك، عددٌ ضائع في بيداء القاعة الواسعة، عالية الجدران مثل معبد قديم؛ شاحبة، تغالب الإنارةُ فيها فضاءً مقيداً، فتبدو محتلَّة بالغبار. قاعة تابعة لإحدى الجمعيات، جرت العادة أن تقام الأعراس فيها، أن يغني الناس، أن يرقصوا، ويزفّوا شِقيٍّ العالم، الواحد إلى الآخر، وبعدها يرحلون باسمين، منهكين، بأصواتهم المبحوحة، وأكفّهم المحمرّة.

***

جلس أحمد الصافي خلف الطاولة فوراً، فالكل كانوا ضيوفا. النادي الذي استأجر القاعة لساعتين من الزمن، وهو.

مال مدير النادي نحوه، قال: ننتظر رُبع ساعة آخر، فالناس لا يعرفون هذا المبنى تماماً. لنترك لهم فسحةً من الوقت كافيةً، لكي يبحثوا عنه ويصلوا.

بين لحظة وأُخرى، كان ثمةَ من يدخل، يحتلُّ مكانه، ويجلس غريباً. أحمد الصافي وجد نفسه يُحصي الحضور، وقبل أن يُكملَ، وجد نفسه في تلك القاعة البعيدة: قاعة "النادي الثقافي". في ذلك اليوم البعيد. لم يكن قادراً على معرفة عدد الناس، حيث الازدحام، والأجساد تحتكُّ به من كل جانب، كل منها يريد أن يأخذ جزءاً منه! تغيّر الزمن، نعم تغيّر.

تذكّر أن آخر قاعة رآها ممتلئة عن آخرها، كانت قاعة الانتظار في مقر الجنرال! حيث الشعب، كل الشعب! أي أُمسية تقام هناك ستكون حاشدة فعلا! ابتسم، ولكنه حين تذكَّر أن كل شيء يتمُّ بمقدار في تلك القاعة: الكلام، الصمت، الدخول، الخروج، الترقُّب، الوقتُ الزاحف كمشرط في الأعصاب. عاد ولملم ابتسامته.

كان أحمد الصافي يحاول إغراق نفسه بكل وسيلة، كي لا يصل إلى ذلك السؤال: *لماذا الأمسية في هذا الوقت بالذات؟! هل أعدّوا لك الفخ، ليعرفوا ما الذي ستقوله في اجتماع عام؟!* ضَحِكَ: *أي اجتماع عام هذا وعدد الحضور لا يتجاوز عشرة أشخاص؟* وضحك ثانية، ولم يعرف إن كانت ضحكته لم تزل في الداخل أم أنها طفتْ على شفتيه، حين تذكّر أنه فعلاً اجتماع عام، مادامت الأوامر والقوانين تحظرُ اجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص، وتُعاقب على ذلك بشدّة!

- *هي أمسية مدّبرة إذن! هل أقيمت لكي يقولوا لي إنك في واد والعالم في واد آخر؟ ربما يقفون الآن في مكان قريب ويُبعدون الناس، حتى تصل رسالتهم واضحة: لا تخسر نفسك يا أحمد، أنظر! إن الناس الذين تقول إنك تكتب لهم لم يعودوا يلتفتون إليك!*

***

مال رئيس النادي المنظِّم للأمسية نحوه، كان وجهه أحمر، خجلاً: *لو أن عُشْرَ أعضاء النادي حضروا، لتغيّر الوضع!*

ولكن الناس كانوا يتواردون، فتيات محجّبات، طلبة، وبعض المعارف.

قال مدير النادي: إنني حزين لشيء واحد، هو أن الجهد الذي بذلته شخصياً مُسْتَغِلاً كل صداقاتي، للحصول على إذن بإقامة هذه الأمسية، كان أكبر كثيراً من حجم الحضور! أظن أن السبب هو الموقع! قلتُ لك أستاذ أحمد: نُقيم الأمسية في الشيراتون؛ قلتَ: لم تجر العادة أن نقرأ قصصنا في فنادق فخمة إلى هذا الحدّ!

نظر إليه أحمد الصافي ولم يقل شيئاً.

- ولن ننسى أستاذ أحمد أن الحصول على تصريح لهذه الأمسية، كان أشبه ما يكون بالحصول على جثة شخص، كل الدلائل تشير إلى أنه مات مقتولاً، ولا بد من تشريحه!

وانخفض صوته أكثر، التصق بأحمد: كان عليّ الذهاب إلى دائرةِ التعقيب! -ما دخْلُ دائرة التعقيب في هذا؟!- التي حولتني بعد الحصول على أختامها وتواقيعها إلى دائرة التحقيقات الجنائية! ثم إلى مديرية أمن العاصمة! بعد ذلك إلى المحافظة، التي أعادتني إلى الدائرة الأمنية لاستكمال بعض الإجراءات! وهذه حولتني بدورها إلى دائرة البصمة! وكان عليّ أن أسألك فوق هذا -وقد أزعجتُكَ وأعتذر لك مرة أُخرى- كان عليّ أن أسألك عن اسم السيدة والدتك! قلتُ لهم، وما دخل والدته في الأمر، فقالوا: إجراءات روتينية فقط!

***

قال رئيس اللجنة الثقافية للنادي: لا بدّ أن نبدأ.

ألقى أحمد الصافي نظرة سريعة باتجاه الحضور، مئات الكراسي الفارغة، وليس هناك سوى العشرات من الناس المبعثرين في الجو الضبابيّ الأصفر.

- يسعدنا أن نقدِّم لكم في أول أمسيات النادي الأدبية، واحداً من أهم كُتّابنا الذين وقفوا مع الإنسان ودافعوا عن المبادئ الكبرى للحياة و...

صُعِقَ أحمد الصافي تماماً حين دخل ضابط، وخلْفه اثنان من أولئك الرجال الذين يرتدون الملابس الرمادية عادة! عرف أحدهم فوراً. لقد رآه كثيراً، هناك في غرفة مساعد الجنرال.

- لم يوافقوا على إقامة الأمسية، إذن، بهذه البساطة.

جلس الضابط، وجلس الرّجلان خلفه، كانوا الأقرب إلى الطاولة، حاول أن يبتعد بنظره عنهم.

تناثر تصفيق خافت، فاكتشف أحمد الصافي أن عليه أن يبدأ. فجأة قرر أن يقرأ "طفل الليلة الطويلة"! نسيَ الضابط ورجليّ التعقيب تماماً، ما إن بدأ.

في القاعة كان هناك شاب بين الجمهور، في الصفِّ الأمامي المواجه له تماماً، بدأ ينغمس في القصة إلى حدٍّ لا يُصدَّق، يصفّق بحرارة وهو يسمع:

"يسعدني أن أقدم لكم الشهيدة بكامل جراحها".

ويصفق للطفلّ الذي يشق الحشود خارجاً من جرحها.

كان ذكياً، لمّاحاً، حماسيّاً، يلتقط أجمل ما في القصة من حالات وعبارات. ينظر إليه بعض الحضور باستهجان، ويجارونه أحياناً في تصفيقه، ولكنه لم يلتفتْ، لم يرتبك، حتى وهو يصفّق وحده طويلاً حين لا يتجاوب أحد معه!

كان الجو مشحوناً في أمسية أُقيمت بمعجزة؛ وكانت كمية الهواء المسموح باستنشاقها ضئيلة.

تذكّر أحمد الصافي أنه جرت مصادرة بطاقات الهوية في بعض الأمسيات لأُناس بمثل حماس هذا الشاب، واستدعوا للتحقيق، حيث لا يتفاعل مع قصص وقصائد كهذه إلا من هو خطير فعلاً.

تمنىّ أن يلجم الشاب حماسه، ولكن الأمنية جاءت متأخرة.

- *هل أصبحت جباناً إلى هذا الحد؟ لماذا لا أمتلك جرأته؟!*

بدأ يتعثر في القراءة، اكتشفَ ذلك. عدَّل الوضع. إلا أنه حين ألقى نظرة جانبية إلى الرّكن الأمني في القاعة، عاد إليه ارتباكه.

تمنى أن تنتهي الأمسية، وأن يلقوا القبض عليه! هذا الشاب المتنمِّر الذي لا يرى شيئاً على سطح الأرض! الذي يصفق غير عابئ بكل هذه النجوم والرُّتب وعيون رجال التعقيب! نعم، تمنى أن يعتقلوه فوراً: *هذا الغبي الذي لا يدرك إلى أيّ مدى وصلت إليه الأمور هنا، حيث أصبحت إقامة أمسية شعرية أو قصصية أو غنائية، من معجزات نهايات القرن!*

لكنه اكتشف أن "طفل الليلة الطويلة" تجرّه إلى "قامة الرّمح"؛ بدأ بقراءتها، كان يريد أن يثبت أنه لم يزل أحمد الصافي، وكان يريد أن يثير حماس هذا المجنون الذي يملأ القاعة ببهجته كلما سمع جملةً جريئة، أو انعطفتْ القصة إلى حدث مفاجئ حار، فليُثِرْ جنونه أكثر!

***

انتهت الأمسية. اقترب بعض الحضور منه، صافحوه. لم ينظر إلى الجهة التي يجلس فيها المراقبون، بدأ ينتظر الفصل الثاني من الأمسية: اقتراب الضابط ورجليّ التعقيب من ذلك المجنون واحتجاز هويته، لإجباره على مراجعة المقرّ صباح اليوم التالي. ولكن الذي حدثَ أن المجنون تقدَّم منه، مدَّ يده، ولم يجد أحمد الصافي بُدّاً من التقاط اليد الممدود.، كان المجنون أعمى! عيناه غائرتان في أعماق جمجمته. فَرِحَ أحمد الصافي بعماه، فرح: *لو كان مبصراً لما فعل الذي فعله! لو كان يرى الضابط ومن معه، لما جُنَّ إلى هذا*

الحدّ! ما ذنبي إن كنت رأيتُهم، وحسبت ألـف حـساب؟ فَـرِحَ أن المجنـون أعمى! وكاد يطير، يـصفّق؛ ولكـن شـيئاً مـا تحـرّك في داخلـه فجـأة: أيـن أصبحتَ الآن يا أحمد، هل تفرح بمصيبة كهذه، هل تفرح لأن الناس عُمْـي إلى هذا الحدّ؟!

وخزته البقع السود تحت ثيابه، فوجد نفسه يبتعـد بـسرعة خارجـاً مـن القاعة دون أن يودِّع أحداً.

- *إنه فخ! إنني متأكد من ذلك. هذه الرسالة فخ، فخ لعين،* قال أحمد.

حمد الله أن أحداً في الجريدة لم يفتحها كما يحدث عادة! حين يقوم المحرّرون بفضّ الرسائل الموجهة إلى رئيس التحرير أو مدير التحرير، فهي غالباً ما تحوي أخباراً، أو دعوات لحضور حفل خيريّ أو رسمي ما، يكون من واجبهم كتابة أخبار عنها.

قرأ الرسالة: *هل من الممكن لرسالة أن تتخطّى كل حواجز الجنرال، قبل أن تصل؟! لا شيء يتخطى كل الحواجز. الرسالة فخ إذن، اختبار ولاء!*

بين أن يُسلِّمها أو يحتفظ بها، اختار الاحتمال الثاني.

- إذا عرف الجنرال بأنني ساهمتُ في تحريض شخص على القيام بعمل خطير، فمعنى ذلك أنه لن يكتفي بحالة العُقم التي تعصف بي، بل سيقوم بجمع كتبي من السوق والبيوت ليحرقني بها! أُخبئ الرسالة، وإذا سُئلتُ عنها، أقول إنني لم أتسلَّمْها...

ولكن أليس هناك احتمال بأن الشخص الذي أحضرها، كان يقف في إحدى الزوايا الخفية ليتأكّد من أنني استلمتها؟

سأقول: إن هناك رسائل لا أقوم بفضِّها أحياناً بسبب ضغط العمل!

لم يمزِّقها. كان يخشى أن يقرأ أحدٌ قطعة منهـا، حملهـا معـه إلى البيـت. أحس أن وجودها في جيبه مسافة طويلة كتلك، هو أكبر حماقة يقوم بها منـذ زمن بعيد.

***

كان التعذيب قد هدأ، لم يستطيعوا انتزاع شيء من سـعد، سـوى مِـزَقٍ من لحمه. عمَّ الهدوء، حتى اعتقد سعد أنه سيُنسى، إلى يوم القيامة! عنـدها قرر أن يبعث برسالة إلى أحمد الصافي. كان ذلك بعد أن بدأت علاقـة طيبـة تربطه بأحد الحراس. أحضر الحارس له الصحيفة ثلاث مرات وكـان يقـرأ فيها مقالات أحمد الصافي، يلتهمها؛ لم تكن بـذلك الانـدفاع القـديم، نعـم، ولكن الزنزانة الضيقة جعلتْ من تلك المقالات عالماً واسعاً لا يُحَدّ.

طلب من الحارس أن يُحضر له قلماً وورقة. استجاب بحذر.

قرر أن يكتب إلى أحمد الصافي، لم يفكر بالكتابة إلّا إليه.

***

أخي وصديقي الأستاذ أحمد الصافي

تحية صادقة.

أنـا "طفل الليلـة الطويلـة". سعد. وعدتُكَ، ووفيتُ بوعدي! وكمـا حدث في قصّتكَ، لم يذهب دم أمّي سدى، ففي اللحظة التي زعقَ فيهـا ذلك الجنرال، بصوته البشع "أقدم لكم الشهيدة، بكامل جراحهـا" كـان على طفلك أن يشقَّ العالم، ويخرج من جرحهـا مولـوداً كـاملاً، يجتـاز البلادة القاتلـة لأعين الجنرالات وينـزل عن الطاولـة دون أن يلتفـتَ إليهم، ويمضي خارجاً، إلـى حيث يعرف، إلـى حيث كانت أمّه، إلـى المكان الذي صبَّتْ فيه الطائرات قذائفها والمدافع حِممها؛ وأن يبدأ من هناك. لعلك استوحيت قصتكَ من تلك الأم الحامل، التـي قُتِلَتْ فـي إحدى الغارات الإسرائيلية قبل سنه تقريباً، ولكن جيرانهـا استطاعوا

نقلها إلى المستشفى بسرعة، وبسرعة، أخرجوا ذلك الطفل من جسدها حياً.

أنا طفل تلك الغارة، طفل ذلك الجرح، طفل تلك الليلة الطويلة.. لقد كان لقصتك حضور دائم حين قررتُ اجتياز هذا الليل المغزول بالموت، ليل العدو.. وليل المنفى.

قد لا تُصدّق، ولكنني سأقول لك، إن قصتّك كانت الحاجز الذي تتحطّم عليه السياط وهم يحاولون تدمير روحي، وتدمير الوطن في داخلي، وكلما كان الضعف ينخر لحمي، كنتُ أتشبّث بهذه القصة، قصتكَ، لأنني لم أكن أستطيع أن أخرج لألقاك بوجه مُسْوَد.

مع كامل محبتي

"طفل الليلة الطويلة"

سعد

***

قرأ السطور الأخيرة مرةً، مرتين..

وعندما نبحَ الكلب في الشرفة المجاورة..

وجد أحمد الصافي نفسه ينبح معه..

دخلتْ فتنة ضاحكةً..

قالت: أصبح لدينا الآن جروان في الحارة. ولم تقل كلبين.

وضحِكَ هو، وتعجب كيف ضَحِكَ!

***

بدأ أحمد الصافي بالبحث عن معنى للوحة الغزال الذي تهاجمه الكلاب الذئبية، بحث عن معنى للوحة دونكيشوت.

- هل تم اختيارهما مصادفة، أم تم التخطيط لكل شيء؟!

في البداية احتار: لقد خيّروه أن ينتخب المكان الذي يريد، لتعليق صورة الجنرال. وكما يقول المثل: إذا أردتَ أن تُحيِّره فخَيِّره، وهذه ليست حَيرة عادية: اختبار ولاء!

سيعود المدير الإداري، يطرق الباب، وبعينين خبيثتين سيبحثُ عن صورة الجنرال، عن موقعها؛ اختيار الموقع هو الاختبار.

وعينا المدير الإداري نافذتان مشرعتان دائماً للجنرال، كان أحد مساعديه لسنوات طويلة، وبعد انتهاء خدمته اختاروا له هذه الوظيفة.

قال: *أُنزلها منزلةً بين اللوحتين، بين دونكيشوت والغزال، بذلك تكون مواجهة لي دائماً.*

ولكنه خشيَ أن يُفسَّر وضعُها بهذا المكان تفسيراً خاطئاً: كيف تضع الجنرال بين دونكيشوت والكلاب؟!

اختفى الغزال، نسيه، سألَ: *كيف نسيتُ الغزال؟ لماذا لم أرَ غيرَ الكلاب؟!*

كان الغزالُ واقفاً متحاملاً على جراحه، غارساً قائمتيه الخلفيتين في التراب، وناطحاً الغيم بقرنيه المتشعِّبين، مُعَلَّقاً بين أنياب مسنونة؛ في تأرجحه ثبات ما، سريّ، سحريّ، غامض وواضح، رغم انغراس أنياب أحد الكلاب في ظهره وإطباق فم كلب آخر على إحدى قائمتيه الأماميتين.

***

هكذا أحضروا لأحمد ذلك الفتى: الأظافر تغوص في لحمه، ولكن عينيه كانتا تبتسمان. كانت عينا الفتى تبتسمان.

قيل لسعد: سنحطِّمك.

وقيل لأحمد الصافي: الجنرال يريدك فوراً.

كان الجنرال قد تذكر فجأة سعد، حين قرأ ذلك الصباح مقالاً لأحمد الصافي.

طلب مساعده الخاص.

سأله: ما أخبار ذلك الولد؟!

- أيّ ولد؟

- ذلك الذي أُلقي القبض عليه بعد تنفيذه العملية.

- موجود سيدي.

- أحضره لي، وأحضر أحمد الصافي أيضاً، أريدهما الآن.

- سنحطمك، ردّدها أحد المحققين ثانية.

ولكنهم بدل أن يقودوه إلى غرفة التحقيق الدّاكنة الدامية، صعدوا به الدرجات. وظلّوا يصعدون، وانعطفوا يميناً، إلى الممر الطويل، قطعوا مسيرة يوم صحراوي! هكذا أحسَّ سعد، توقّفوا، طرق أحدهم الباب، ودخل.

قال المساعد الخاص: أدخلوه.

حاول أحمد الصافي أن يتذكر الوجه الذي أمامه، لم يستطع.

أهذا سبب استدعائه السريع؟

ها هو أمام فتى لا يتجاوز العشرين، يعرفه ولا يعرفه، في يد أحمد الصافي كوب شاي، بدأ يرتجف كلما راحت ملامح الفتى تقترب من ذاكرته أكثر.

وارتجف الفتى. لأول مرة يخاف إلى ذلك الحد، عَرف أحمد.

قال الجنرال: أهلاً سعد، أهلاً بالبطل!

اعتكر لونُ أحمد الصافي، تذكَّر الرسالة الأولى، تذكَّر الثانية. قال: الرسالة الثانية فخ. ولكنّه استبعد ذلك، لأن وقتاً طويلاً مضى عليها.

قال الجنرال: كنتُ أتحدَّث مع الأستاذ أحمد، وأسأله، هل تؤمن بكل ما في هذا البلد، فأكّد لي أنه يؤمن فعلاً. بالمناسبة أُعرّفك على الأستاذ أحمد الصافي، أحد أهم الكتاب!

- *ماذا يريد الشيطان؟* صرخَ أحمد بصمت. اشتعل كوب الشاي في يده بعد أن كان قد نسيه تماماً.

استجمع سعد روحه وجسده، غرس قدميه في أرضية الغرفة، ورأسه في سقفها. تحامل على نفسه، فبدا أكثر ثباتاً.

قال: *فخ أُعد بإتقان، رأيته، ومن العار أن أقع فيه، مقابلة مدبرة، مصنوعة، مفبركة!*

قال الجنرال: خذوه.

فعادوا بسعد.

***

- شكراً أستاذ أحمد على حضورك، سنبقى على اتصال!

وقف الجنرال، مدّ أحمد يده ليصافحه. يده في يد الجنرال الذي أضاف: قصة الأعمى طريفة! أليست كذلك؟!

- لم يستطع الإجابة.

هل تمّ زجّ الأعمى في الأُمسية بتدبير من الجنرال؟! استبعد ذلك، لم يستبعده، وظل صامتاً.

***

قال: *ماذا يعني أن أخسر قارئاً، إن لديّ عشرات منه.. مئات!*

- *ولكنه ليس كأي منهم.*

- *وليكن.*

- إنه جزء من قصتكَ. بل إنه الكائن الوحيد، ربما، الذي أعطى قصصك هذا المدى.

- وليكن، هو قارئ واحد، واحد فقط. وربما يكون هناك عشرات غيره أعطوا القصص مداها ولم أسمع بهم!

- وهل ستبيعهم بكلمتين، مثلما بعته؟

- أنا لم أبع أحداً، لقد أفرحتُ آلاف القراء ومازلتُ.

- ها قد بدأتَ تعيش على فوائد قصصك! لا قصصك نفسها. تشبه أولئك الرجال الذين مرّوا في شوارعنا ولم يعودوا ثانية، مع أنهم يسكنون المدينة ويمرّون بالشوارع نفسها كل يوم.

- مازلتُ قادراً على الكتابة.

- رغم أنكَ لم تكتبْ منذ زمن!

- أستطيع أيضاً إعادة طباعة كتبي!

- لن تجرؤ على ذلك!

- لماذا؟

- لأنهم لن يقبلوا حنينك للماضي، ثم إنك لم تعُد تملك ذلك الوهج القديم. نحن نحسّ بحرارةِ الجمر حين نكون قريبين منه، وأنت ابتعدتَ، ولا تنسَ أن هناك جيلاً جديداً من الكُتّاب.

- مجرد أولاد.

- ولكنهم يعطون أكثر من حجم أعمارهم.

- سيبقون أولاداً!

- وأنت؟

قال: أنا سأبقى الأساس.

- غداً يذوب الثلج!

***

بحث عن جُحرٍ يندسّ فيه. لم يجد. كل ما حوله يعيد تلاوة التفاصيل، وجحافل من نمل أسود راحت تدبُّ على صخرةِ روحه العارية.

- ما الذي يعنيه صموده؟! ما الذي يعنيه عدد من العصي على جسد؟! لقد التهمت جسدي آلاف العصي عندما كنتُ صغيراً! ولكنني كبرتُ، وواصلت حياتي، وها أنا أحمد الصافي، اسم بحجم صاحبه! ما الذي يعنيه عدد من العصي؟ لقد أكلتُ من ثمارها القاسية بذنبٍ وبغير ذنب، طيلة طفولة كاملة، وكبرتُ!

تذكَّر أمه، لأول مرة، من زمن لم يتذكّرها، ظلّ يدفعها إلى تلك النقطة المظلمة التي لا تعود فيها مرئية.

كانت تقول له: أنظر إلى عُمَر – عمر صديقه- إنه لا يفارق كتابه، ليل نهار يدرُس، وأنتَ، تتقافز من سطح إلى آخر مثل قرد – وتضربه حين ينطفئ غيظُها-. في نهاية السنة، ستفضحنا بشهادتك المدرسية المليئة بالدوائر الحمراء، أنت لا تستحق الطعام الذي تأكله!

ويجيء آخر العام مندفعاً، مخترقا صدر الطفولة الهاربة، فإذا بعمر يرسُب، وأحمد ينجح، وتبدأ السنة التي تليها، وتتكرر الأُسطوانة.

- نعم لقد فكرتُ جيداً بقتله هذا "العُمر" الغبيّ، لماذا لا أقتله، كل هذا يحدثُ لي بسببه، سأستدرجه إلى حافة إحدى الكسارات وأُلقيه من هناك، ولتتحطم جمجمته الفارغة!

قال لأمه: إنه يقرأ كحمار، ولا يفهم شيئاً.

قالت: ولكنه لا يفارق كتابه!

ثم يرسُب عمر، ويقومون بترفيعه إلى الصف التالي مرة كل عامين، تلقائياً.

- وتظل أمي تصرخ ستسوّد وجهي في نهاية السنة، حين تأتيني راسباً! وحتى حين لم يعد بإمكان المدرّسين ترفيع عمر إلى صف آخر، حتى عندما طردوه واشتغل، وكنتُ قد تجاوزتُ الثانوية العامة بنجاح، قالت أمي: أنظر إلى عمر، لقد اشتغل وتزوّج وامرأته حامل منذ شهرين، وأنت مشغول بكتابة هذه الخراريف، وقراءتها!

.. كان عليّ أن أقتل عمر، ذلك الذي كان وحده يملأ عيني أمي، سأقتله، لقد نالني من العذاب بسببه ما لا يحتمل.

.. ولكنني حين افتعلتُ معه شجاراً بعد سنوات، لم أستطع توجيه أكثر من لكمة واحدة إلى أسنانه الصفراء البارزة دوماً، لكمة سحقت ابتسامتُه الغبية إلى الأبد.

***

أي أنواع العذاب إذن لا يمكن أن أحتمله، وأنا أعرفها كلها؟

***

تذكّر كتاباً كان اشتراه منذ مدة "التعذيب عبر العصور" نعم، "التعذيب عبر العصور". بحث عنه، وجده، بدأ بقراءته.

- ما الذي أُحاول أن أُثبته لنفسي؟ أنا لم أسقط السّقطة القاتلة! لم أُقدِّم أيّ شيء، سوى كلمتين، كلمتين لعينتين، نعم! ولكن هذا الضغط الذي مارسوه على الروح أقصى آلاف المرات من أي ضغط يمكن أن يُمارس على الجسد.

قرأ، وواصل القراءة، أشكال مرعبة من التعذيب، ولكنّه كان يتساءل: هل أحتملها؟! ويجيء جوابه: نعم، بثقة.

- الإهانات؟

- أحتملها.

- خَلْع المفاصل وتكسير الأطراف؟

- أحتملها.

- الدّحرجة من على جبل بعد ربط الجسد بدولاب يُصنَع خصيصاً؟

- أحتملها.

- الخازوق، استخدام الوحوش، الشيّ حياً، انتزاع اللحم؟

- نعم سأحتملها!

كان صوته يرتجف، حاول ألّا يسقط على الصفحات التي يحرثها بعينيه الداميتين. توقّف عند فقرة تتحدّث عن رجل عملاق. تذكر أن سعد طفل: *لا يهمّ، الإنسان إنسان*. لقد استطاع ذلك العملاق أن يمتصَّ كل أشكال التعذيب كما يمتص الورق النشّاف الحبر.

تمنّى أن يمتصَّ جسده الحبر، تمنى أن يكون جسده ورقةَ نشاف يَغرق فيها الحبر بلا عودة.

لقد جاء محققان وقالا للعملاق السجين: استعد لمغادرة المخفر.

(أخذاه إلى طبيب أسنان مجاور تربطهما به صداقة! ويعرف الجميع من الكابتن إلى أصغر مجند. في عيادة الطبيب قُيّد العملاق إلى الكرسيّ. كان رجلا التحري واثقين أنه ما من شيء سيحدث يمكن له أن يُجرِّمَ أحداً، وما إن أُعطيَ طبيب الأسنان إشارة البدء حتى بدأت عملية ثقب بطيئة في منطقة العصب، وبعد أن حشا السنّ تساءل السجين بقلق عن عدد الأسنان التي سيتمّ ثقبها!

- كلها، قيل له. ولدى سماعه ذلك اعترف!)

قرر أحمد الصافي أن يذهب إلى طبيب أسنان، وأن يطلبَ منه اقتلاع أحد أسنانه السليمة! بعد أن يُقنع الطبيب أنه يعاني ألماً كبيراً بسببه. فكّر في ذلك طويلاً، ثم حمل إحدى مجموعاته القصصية "قامة الرمح"، وذهب إلى

طبيب يعرفه، كان قد حضر بعض أُمسياته، وطلبَ منه أكثر من مرّة أن يحصل على واحدٍ من كتبه، بحجَّة أنه لم يعثر عليها في السّوق!

صعد الدرجات إلى الطابق الرابع في البناية. وصعد الكرسيّ، سأله الطبيب فشرح له المشكلة التي يعاني منها، ولكنه بدل أن يطلب منه أن يخلع أحد أسنانه، أشار إليه أن يخلع إحدى طواحينه! بعد أن تذكر أن خلع سنٍّ سيشوّه منظره!

وقبل أن ينظر الطبيب إلى داخل فمه، ناولهُ أحمد الكتاب.

قال: أوصيتني أن أُحضر لك من كتبي؛ أعتذر لأنه لا يوجد لدي غير هذه المجموعة، وبما أنني وفيتُ بوعدي فعليك ألّا تؤلمني!

شكره الطبيب بحرارة، بعد أن طالع كلمات الإهداء الذي كتبها المؤلف له بكرم لغويّ بالغ!

قال: الآن إلى العمل!

حدَّق في الكهف اللحمي الصغير، سأل أين الطاحونة التي تؤلمك، أشار إلى واحدة كيفما اتفق.

قال الطبيب: إنها سليمة تماماً.

- ولكنها تؤلمني!

- يهيأ لي أن ما يؤلمك هو الطاحونة الأخيرة، ضرس العقل فالسُّوس التهمها.

بدأ الطبيب يعمل بها. تصاعد الشرر منها. لا بدّ أن الشّرر تصاعد منها، لأن فمه بدأ يحترق. حاول، مرّة مرتين، أن يتماسك، في النهاية صرخ.

قال له الطبيب: يلزمها الكثير من العمل.

قال: نؤجله إلى يوم غد.

- لا يجب أن ننهيها الآن. ثم إن هناك غيرها.

قال: أُهديك الكتاب وأوصيك ألا تؤلمني، وها أنت تعذّبني! حاول أن يضحك، أن يبدو الأمر نكتة، ولم يدر كيف فهمها الطبيب، إلّا أن أحمد الصافي اكتشف المعادلة، وهذا ما فجّر ألمه أكثر: *لقد منحتُ الجنرال كل شيء، ولكن هل سيتوقف عن قلع أسناني؟*

أحس أن كلّ شيء يذهب سدى.

صرخ ثانية. فها هو رأسه يتفجّر ببطء، وها هو يرى حطام جمجمته في تصوير بطيء على شاشة كونية: *أعطني إبرة بنج!*

قال الطبيب: يكفي اليوم. غداً نواصل.

عندما هبط أحمد الدرجات، كان يعرف أنه لن يعود أبداً. لقد هُزم، وبدأ يبحث عن جُحر آخر يختفي فيه من جديد.

***

انتظر الليلَ أن يهبط بكامل أجنحته، بكامل غموضه. انتظر سقوط فتنة في بئر نومها. هذا النوم الأثقل في العالم. كان يحسدها لأنها قادرة على أن تنام بهذا العمق، بهذه البلادة، بهذا البرود. رغم كل شيء، تستطيع النّوم، كأنها تلجأ لحل مشكلاتها بالدخول إلى نصف الموت.

تسلّل على رؤوس أصابعه مرتبكاً، تناول بيجامته خرج إلى الممر - الاحتياط واجب- خلع بنطاله. دائماً يبدأ بالبنطال، البقع السود على السّاقين أقل اتّساعاً. خلعَ قميصه الأبيض. هو الآن مُغْرَم بالبياض. اندسَّ في البيجاما. أتعبته المحاولات التي بذلها في الظلام، وهو يعمل على زرِّ القميص.

كان يستغلّ غيبتها بعد خروجها إلى العمل كلما اشترى قميصاً جديداً أو بيجامة، ليبدأ بتضييق العُرى، حتى لا يكون هناك مجال لانفتاح البيجاما ليلاً، أو القميص نهاراً! كان لا يستطيع أن يلبس ربطة عنق، ولكنه اضطر

لذلك، فبدا أكثر أناقة؛ وصار يحرص على أن تكون الجوارب طويلة، تصل الرُّكبة.

لم يكن يريد أن تراه فتنة على هذا الحال. أما البُقع فكانت تتّسع وتضيق بلا ضابط مفهوم في البداية، حتى اكتشف سرّها!

يهرب من فتنة، من جسدها، من عفويتها، واشتعالها، ونومها الثقيل. مرةً قال لها: إنك امرأة المتناقضات! كان يتمنّى امرأة أقل حرارة، لخوفه من أن يذيب عرقها الجارف هذا السواد الذي يحتلّه، فتجد نفسها صباحاً غارقة في الحبر. كان لا يجرؤ على النوم عارياً معها، يندس ببيجامته، ينزل البنطال إلى ركبتيه، ويفعلها لأنه يريد أن ينتهي!

تجرأ أخيراً أن يدخل عارياً جسدَها.

انتابه ذلك اليوم حس بضرورة الانتحار، ولم يكن يستطيع تنفيذ ذلك، لم يجد إلّا أن يدمّر كل شيء بأن يعود كما ولدته أُمه، لا، لم تلده أُمه بهذه الصورة! كما ولده الجنرال! لا، كما ولد نفسه! يغوص في لحمها، ولتغسلْه؛ فليختبر طهارتها ونقاءها بحلكة سواده! ولكنه للمرة الألف، لم يستطع إشعال الضوء.

قالت: أريد أن أراكْ.

تحسستْ جسده بشبق مجنون، أمسكَ يدها قرب مفتاح الكهرباء، قال: لا تُشعلي الضوء!

كيف رأى يدها في تلك العتمة الصّلبة!

- كأني واحد من كائنات الليل، كأنني خفاش.

حاول أن يقول: وطواط. ولكنه وجدَ أن كلمة خفاش دالّة أكثر. إنها تخفشُ!! أو تخمش، أو تنهش، إيقاع الكلمة أكثر حضوراً فيه، ابتعد كثيراً، وحين عاد، وجد فتنة في أوجها، وكان يواصل حركته بآليةٍ!

قالت: يكفي.

ولم يكن يهمه أن يواصل، بعد أن وجد نفسه غارقاً في بحيرات لزجة.

أغمضت عينيها، أخـذها ذلـك الـدفء الـسحري لجـسديهما للبعيـد. نامت!

امتدّت يده إلى مفتاح الضوء. أشعله بسرعة، ثم أطفأه، وفي ذلك الجـزء من الزمن، في تلك الثانية، رأى بياض فتنتها صافيا، كما لم يره من قبل.

لم يعد قادراً على ترتيب الحـوادث في ذهنـه متسلـسلةً. أشـياء كثـيرة حدثت، يُفكر فيها، فيحسّ بأنها ستحدثُ مستقبلاً، ويُفرحه أنـه متـيقن إلى هذا الحدّ من نبوءاته!

وحده الكلب في الشّرفة المجاورة يذكِّره بمكانه. تقلَّب في السّرير، نـبحَ الكلب، هذا المخلوق الأبيض المرقَّطُ بالأسود يحسُّ بكل حركاته.

- *هل حركتي توقظ الكلب؟*

حاول أن يدخل التجربة. تحرّك مـرةً ثانيـة. نـبحَ الكلـب! بـدأ يتحـرّك بسرعة أكثر، ينتفض، وبدأ الكلب نباحاً متواصلاً!

وفتنة، كانت بجانبه، ولم تكن بجانبه.

تساءل: *كيف يستطيع الإنسان النوم؟!*

***

بحث عن مكان يليقُ بصورةِ الجنرال أكثر، وظلّ المـدير الإداري يـذرع الوقتَ بعينيه المتلصصتين. قلَّب الاحتمالات كلها للمرة العشرين، عـاد لَـهُ السؤال: *هل وضع الجنرال الكلب في الشرفة مصادفةً؟*

.. واكتشف أنه كان ينظر إلى الكلاب والغزال في اللوحة.

طردَ الأسئلة، حين رحل بعينيه إلى دونكيشوت وسانشو بانزا.

- *هل يمكن أن أكون دونكيشوت؟*

- لا.

- إذن سانشو.

- من إذن دونكيشوت؟ الجنرال؟

- لا.

- رئيس التحرير؟!

- ربما.

- وأنا؟ سانشو؟ الجنرال لا يمكن أن يقصد ذلك حرفياً، فرغم كل شيء كانت أهداف دونكيشوت وسانشو نبيلةً، ولكنهما لم يمتلكا تلك القوة التي يحققان بها أحلامهما: هل أُشبههما في هذه النقطة؟

- لا، لا، كنت أُشبههما في الماضي ربما.

قرر الذهاب إلى طبيب نفسي.

قال له: لديك حسٌّ عميقٌ بالذَّنب!

فقرر ألّا يعود إليه ثانية:

- أعرف علّتي أكثر منه.

وعاد ليغرق في اللوحتين، في الوقت الذي بدأت صورة الجنرال تذرع الغرفة أمامه باحثةً عن مكان مناسب لها.

***

تغير الجنرال، استبدل جلده.

كان قد طلبه في ذلك اليوم. ذهبَ أحمد. فوجئ للمرة الأولى بعدد هائل من اللوحات التي تُغطي جدران مكتبه الضخم! أعمال فنية عالية القيمة، أصليّة. كان أحمد يومها يشعر براحة خلال الزيارة.

قال الجنرال: مبروك!

- الله يبارك فيك.

- هل أعجبتك السيارة؟! أين أوقفتها؟

لم يعرف إن كان عليه أن يجيب على السؤال الأول، أم الثاني أم كليهما.

- في موقف سيارات قريب. من هنا.

- لا، هذا غير لائق، بخاصة في هذا الجحيم. إن صيف هذه السنة جمر حقيقي. في المرات القادمة ستدخل إلى الموقف الخاص بالمقرّ.

- حاضر.

- عن إذنك، دقائق وأعود.

خرج الجنرال، عاد الجنرال، لم يحس بدخوله: أين وصلتَ.

قال أحمد: اللوحات. أعمال جميلة، خاصة لوحة الخيول، لم أر في حياتي خيولاً مُنطلقةً إلى هذا الحدّ!

نفخ الجنرال بأسى.

قال: نعم، ولكن مَنْ يُقدِّرُ ذلك؟!

أبعد عينيه عن لوحة الخيول، استند إلى الكرسي، غاصَ في داخله، إلى تلك الدرجة التي يعتقد فيها الإنسان أن الكرسي نفسه هو الذي يتكلّم.

- أنت تعلم أنني أمضيت فترة من حياتي في سويسرا. هذا ليس سرّاً، وهناك فوجئت بأعمال أحد الفنانين الشباب، فاشتريتُ ما يقرب من ثلاثين عملاً له! باختصار، اشتريتُ المعرض بأكمله! كان السِّعر الإجمالي للوحات تافهاً بالمقارنة مع أهميتها. قد تستغرب الآن ما سأقوله لك؛ منذ شهور زرتُ جنيف، وعندما عَلِمَ الفنان بوجودي، اتصل بي وزارني، وللحقيقة، أحببتُ أن أراه فعلاً. ذكَّرني باللوحات التي اشتريتها منه، فقلت: إنها في الحفظ والصّون! وبخجل شديد عَرَضَ عليَّ أن يشتريها ثانية، بعشرة أضعاف ثمنها. ضحكتُ، واكتشفتَ أنه كان غبياً في طلبه، فما الذي تعنيه لي مضاعفة المبلغ عشر مرات؟! أقصد، في مقابل لوحات فنية رائعة كهذه!

غاص الجنرال في الكرسي أكثر، وتحدَّث بأسى أكبر: ولكنني أُصارحك، إنني أعدتُ كثيراً من هذه اللوحات إلى موطنها، جنيف. وقد تسأل: لماذا؟

- لماذا؟!

- لقد نظرتُ في أحد الأيام إلى هذه اللوحات، بعد خروج عدد كبير من الزائرين من بيتي، فوجدتُها حزينة! قد تستغرب هذا، نعم كانت حزينة، لقد راقبتُ ضيوفي طوال السهرة، فلم أر أياً منهم يلتفتُ إلى لوحة واحدة من هذه اللوحات! باستثناء لوحة فاشلة في صدر البيت، منقولة عن صورة فوتوغرافية للمرحومة الوالدة! أما بقية اللوحات فكانت حزينة. في اليوم التالي، -وأنا أشعر الآن بالذنب، لأنني اكتشفت هذه الحقيقة متأخراً- في اليوم التالي، قررتُ إعادة اللوحات إلى جنيف، إلى بيتي الذي هناك! قد لا تصدّق ما سأقوله لك الآن: لقد تأمّلت اللوحات في زيارتي الأخيرة إلى سويسرا بعد إعادتها، ولك أن تستغرب ما سأقوله، لقد شعرتُ أن اللوحات فَرِحةٌ بحريتها، فَرِحةٌ إلى حدّ لا يُصدَّق، حتى إن عيني اغرورقتا بالدموع، كما تقول العرب!

صمتَ قليلاً، ثم هتفَ وكأنه استعاد نفسه: كنت أريد أن أقول شيئاً؟! آه، إنني أقرأ مقالاتك، خاصة "كلمة الصحيفة"؛ أظن أنها جيدة، ولكنني أُحب أن أُشير إليك هنا، أنك تبالغ أحياناً في المديح. أقصدُ مديحك لنا. وقد يكون لهذا أحياناً مردود عكسي! أفهم، نعم، أفهم جيداً أنك جديد في هذا المجال، وأنك ستتقنُ اللعبة قريباً، لاسيما أنك تملك من المؤهلات ما لا يمتلك غيرك في الصحيفة، ولذلك، ستُقدِّم الأفضلَ مستقبلاً... لقد اضطّر رئيس التحرير مؤخراً إلى شطب كثير من "الولاءات الزائدة" التي أغرقتَ بها المقالات! تذكّر، إنني أريدك معتدلاً، وأن تبدو عِلْمياً، نحن بحاجة إلى كمانٍ في هذا الأمر، لسنا بحاجة إلى بوق!

صمت الجنرال طويلاً، حدّق في وجه أحمد الصافي، قال: ولكنكَ تعرف أننا نحبكَ ونحترمك يا أحمد.

***

لقد تغيرَ الجنرال فعلاً، لم يعد هناك أثرٌ للتشتّت الذي كان يبتلع كلماتـه، مثل تلك الشهيرة التي ألقاها في افتتاح مصنع الشوكولاته والعلكة.

صرختْ فتنة في وجهه ما إن عبر بوابة البيت: لقد أبلغوا الجيران، كلّ الجيران، أنهم سيقومون بترحيلهم، وأبلغونا بذلك.

سقط أحمد الصافي على المقعد، رأى نفسه عارياً أمام فتنة بكامل بُقَعه السّود، عاوده الإحساس بأن العالم ضيق، وأنه ليس أكثر من لقيط.

في كل مرّة كان يجد نفسه عرضة لعاصفة اليأس، كان يتذكر اسمه "أحمد الصافي": *نعم لا أمتلك غير الاسم*. ويستغرب أن لديه اسماً مكوناً من مقطعين، "أحمد" .. "الصّافي"! لا يستطيع الآن أن يتذكّر ما بينهما! وكلما أوغلت العاصفةُ فيه اكتشف أنه "أحمد". أحمد فقط. تلك كانت أقصى حالات غربته، ضياعه، إحساسه بأنه مُجتَثٌّ عنوةً من رحم لا يعرفه قبل أن تكتمل الحياة فيه؛ ولكنه يعود ويطمئن نفسَه، يتذكّر: "الصافي"! ولكنه يكتشف أن الصافي صفة أكثر مما هي اسم. فيحزن.

الآن يكتشف أنه فقط أحمد، وأن "الصافي" لم يعد "صافياً"، إنه عكر: *أنا أحمد العَكِر!*

ولكنه فجأة فَرِحَ لأن لديه اسماً من مقطعين رغم كلّ شيء: *أحمد العكر!*

قالت فتنة: عليكَ أن تحلّها مع صاحبكَ!

- مَنْ صاحبي؟!

- حضرته.

- ومن قال لكِ إنه صاحبي؟!

***

هذه المدينة بكامل سيولها وتلالها ستبقى قرية مهما اتّسعَتْ، وعنْـزةً ولـو طارت!!

***

دخل مكتبه، تأمّل صورة الجنرال، كان قد اكتشف أن المكـان الأنـسب لها، هو المكان التقليدي، أن تُعلَّق فوق الرأس، حيث يجلس الشخص!

نظر إلى صورة الجنرال، لم يجرؤ على أن يجلس على كرسيّه معطيـا ظهـره للجنرال! أحس بأنه ليس أكثـر مـن ضـيف عـلى هـذه الغرفـة، عـلى هـذه الصحيفة، على هذا البلد، على هذا الوطن، على هذا العالم!

- ما الذي يريده، هل أتحـدَّثُ معـه وأطلـب منـه أن يـرحم أعـصابي، وأطفالي؟!

تذكّر أن لديه "فارس" فقط. يحبّه ولا يحبّه! يحبّه لأنه بـريء، ولا يحبّـه لأنه بريء أيضا! لا يحبه، إلى درجة قرر فيها ألّا يُنْجب غيرَهُ، كي لا تـساهم براءة جديدة في شدِّه إلى القاع.

- ما الذي يريده الجنرال؟ أن أكتب باسمي الصّريح؟! سأكتب.

واكتشفَ للمرّة الأولى أنه لم يكتب باسمه طوال تلك الفترة الطويلة إلّا لأنه متيقِّن من أنه لا يملك غير اسمه: *سأعطيه اسمي!*

رنَّ جرس الهاتف وواصل رنينه، قال مـرة: أخـشى أن يعـذبوني بـرنين متواصل لجهاز الهاتف، لأنني سأعترف!

- تعترف بماذا؟ سأل نفسَه مستغرباً.

- سأقرأ لهم قصصي كلّها.

وضَحِكَ. كان لمّا يزلْ قادراً على الضَّحك. تعب الهاتف، توقّف الرّنين، فعمّ الصمت. نهضَ، احتلَّ مكانه خلف الطاولة.

- *لن أكون ضيفاً بعد كل هذا الذي قدّمته، لا لن أكون.* لمح الكلاب التي تنهش الغزال.

- *لن يكون ذلك، قالها بحنق.*

لم يعرف عما سيكتب، طلبَ المُراسل. أحضرَ له قائمة بأهمّ الأخبار. توقّف عند واحد منها: الجنرال يفتتحُ اليوم أول مدينة تعليمية تربوية في المنطقة. لم يتردّد، أحسّ بأن المقال حاضر فيه منذ زمن. أحسّ بأنه، نفسه، قد غدا نافورة من المقالات والكلمات المكرّرة. كتبَ عن ضرورة العلم، وأن هذه الفكرة: فكرة المدينة التعليمية التربوية، فكرة فذة، على غرار المدن الصناعية التي أُقيمتْ. وأشار إلى أننا يجب أن نبدأ بتصنيع أبنائنا، وبنائِهم، بهذا نصل إلى القوة التي تؤهّلنا لدقّ بوابات العالم بجرأة.

كان يعرف أن المدينة التربوية ستُخصّص جزءا واسعا من منهاجها لدراسة سيرة الجنرال، وحكمتهِ وأقواله وخطبه.

وأكد في النهاية أن ذلك لم يكن ليتمّ لولا الحكمة الملهَمَة الملهِمة للجنرال، الذي بغيره ما كان لهذا البلد أن يكون.

ووقّع: "أحمد الصافي"

***

ضغطَ مفتاح الجرس، هبَّ المراسل، تناولَ المقال من اليد الممتدّة إليه.

خرج أحمد، حين حاذى موظف الاستقبال، ناوله الموظف مُغلفاً صغيراً دسّه أحمد في جيبه. خرجَ إلى الليل الذي أصبح قطعةً منه، اندفع إلى الشارع المضاء بالزئبق الأصفر. قرر أن يترك السيارة واقفة وأن يقطع المسافة سيراً على الأقدام إلى البيت، أو ركضاً، أو كيفما اتفق!

سار مسافة طويلة، تذكّر أن مقاله في زاويته اليومية الخاصة، يتحدّث عن تلك الفئة من الأطفال التي تجوب الشوارع، تبيعُ الصحف والعلكة وأكياس القمامة وأوراق اليانصيب عند الإشارات الضوئية، وتقوم بأعمال

شاقة في الكراجات ومعامل الطوب، والمناجر، والمحادد، وتساءل عن النظام التربوي أين هو؟! وكيف نسمح لأنفسنا أن نتركهم فريسةً لأنياب الشوارع والمستغلِّين؟! في وقت يجب أن يكونوا فيه على مقاعد الدراسة، وطالب بمحاكمة آبائهم ومحاكمة النظام التربوي الذي يغضُّ الطرف عن مشكلاتهم...

تذكّر ذلك. قال: سيكون الغد مهزلةً! كانت السّاعة قد تجاوزت الواحدة صباحاً، لا بدّ أنه قطع أكثر من خمسة عشر كيلومتراً باتجاه بيته.

انهارَ تماماً، لن يستطيع العودة إلى الجريدة، لن يستطيع إنقاذ نفسه من المهزلة التي وقع فيها. كان ذلك يحدث في السابق، ولكن لم يكن يُعرَف أن المقالين لكاتب واحد! مقالان متناقضان، الأول يحتل صدرَ الصفحة الأولى والثاني في الدّاخل، مهزلة، كيف يبررها؟!

***

انتابته تلك الحالة التي يستسلم فيها تماماً، ولا يعود لأي شيء في الدنيا أهمية خاصة. ما الذي يهمُّ رجلاً يائساً يصعد درجات المشنقة ليُعْدَم؟ تأرجح، ثم جلس على حافة الرصيف. وفي موجة العبث اليائس ذاتها، تذكَّر المغلّف الذي أعطاه إياه موظف الاستقبال، مدَّ يده إلى جيبه، أخرجه، اقترب من عمود نور، فتحه.

"الأستاذ أحمد الصافي

تحية وبعد،

ها هي السنوات تمرُّ، أصناف كثيرة من البشر تُصادفك في هذا العالم المعدنيّ، المزنز بالقضبان، والوحشة، والليالي الطويلة.

تعلمتُ الكثير، ولعلي تغيرتُ، أو تجذرتُ في نفسيَ وفيمن حولي، فيما كان جميلاً فيَّ، وحاولت دائماً تجاوز نفسي بأن أتركها تتبع خيط ضوء نحيل، أو خبرا مُفرحا يتسلل عبر الأسلاك.

تعلمتُ أن أواصل البحث عن الحياة، أن أجدها وأن أحميها في الأمور الصغيرة. التفاصيل تصبحُ أكثر رمزيةً في السجن، لأن الإنسان يحاول اختصار العالم وتجسيده في حُبَيْبَاتِها.

وتعلمتُ شيئاً كبيراً. إنهم لا يستطيعون تحطيمَ إلا ذلك الذي يحملُ بذرةَ الحطام في داخله أصلاً.

افتقدكَ، أفتقدُ قصصكَ، أين أنت الآن؟ أين جديدك؟ وأين أجدكَ خارج هذه الكتابة اليومية العابرة؟

أُجدد العهد، بأن أكون دائماً "طفل الليلة الطويلة"، مع أنني كبرتُ قليلاً! ولكن هل يستطيع الطفل أن يكون أكبر من أمّه في لحظة ما؟؟ هل..؟"

لم يستطع أحمد الصافي أن يُكمل، قامَ وبدأ يركض، أحسّ بوجود من يركض خلفه. التفت، كان أحمد الصافي أيضا! ازداد اندفاعاً!!

أُنهكَ، وسقطَ.. سقطَ في الشارع ، عند عتبة البيت، عند عتبة الجريدة، عندَ قدميّ الجنرال، فوقَ السرير. لم يعرف.

كان في العتمة قابعاً، تحسستْ يدُهُ ما حوله، وقعتْ على نتوء صغير، تأكد أنه مفتاح كهربائي، ضغطَ عليه، أُضيئت الغرفة، كان في غرفة فارس، استيقظَ ابنه، قفزَ إليه واحتضنه. كشفَ عن صدره فظهرت البقع السود. كشفَ عن صدر ابنه، عانقه، شدَّه إليه، كان يريد أن تَعْلَقَ به بعض البراءة، أن يغتسلَ بها. وقف فارس جامداً، فَزِعاً، وعندما نظر أحمد الصافي إلى وجه ابنه، لم يكن ذلك الولد الذي عَرفه، لم يكن بريئاً إلى ذلك الحدّ الذي كان يتصوّره، لقد كَبُرَ الولد! وغادر براءته القديمة مثل كل الأطفال الذين يكبرون. بل إنه كان يشبهه، يشبهه جداً حين كان بعمره!

في الشرفة المقابلة بدأ الكلب ينبح، بمجرد أن رأى نافذة غرفة فارس تُضاء والخيالات تتهاوج فوق الستائر. عندها، لم يُقاوِم أحمد الصافي رغبته في

النباح، نبح يردّ على الكلب، نبح طويلاً، حتى سقطَ على وجهه وغاب. مدّ فارس يده سَحب لحافاً وغطّاه، وظلَّت فتنة، غارقة في نومها الثقيل المعتاد.

***

خيطُ ضوءٍ نحيل تسلل عبر ستائر النافذة باتجاهه، هابطاً بأقدام أثيرية، نقطة صغيرة كان الضوء، بدأتْ تتّسع، وتُشتتُ آخرَ ما تبقّى من ظلام. تسلَّقت الجانب الأيسر لأحمد الصافي الذي كان عارياً، وهناك، توقَّفتْ طويلاً، حاولتْ أن تدحرَ هذا السّواد الليليّ عن جسده، مرةً، وثانيةً وثالثة، ولكنها لم تستطع، رمتْ بكلِّ ثقل الشمسِ الصاعدة إلى سمائها الزرقاء، أنشبتْ خيوطها في الجسد. حاولتْ، وعندما أدركَتْ أن هذه البقع السود ليستْ ليلاً أو ظلاً، وأنها لن تستطيعَ تبديدها، انتشرتْ في الغرفة بجنون، واحتلَّتها، فانكشَفت الغرفةُ بكل ما فيها. أحسَّ أحمد الصافي بمخالب الضوء تغوص في عينيه، انتقض، وراح يختفي في قميصهِ عميقاً، عميقاً، مثل خُلْد.

***

حاول أن يجمع شَتات الليلة الماضية، الليلة الطويلة الجديدة، وحين تذكّر تفاصيلَها، اكتشفَ أنه بعيد عن نفسه، عن كل شيء، وأن المدينة تلوح مثل جثةٍ تحلّلتْ وما زالَ الرمحُ مغروساً بين أضلاعها.

اكتملتْ الليلة الطويلة، بحثَ عن طفلها، رآه في المرآة يتسلَّق أحشاء إسمنتيةً لجثة متحلّلة. سمعَ صوت خطى تصعدُ الدّرج الخارجي للبيت، وسمعَ الكلب ينبح، ركض باتجاه الباب فتَحه. تناول الجريدةَ من يد الموزِّع الذي كان ينحني ليضعها على العتبة في تلك اللحظة. ارتفع نباح الكلب، التفتَ نحوه، تبادلا النظرات، ورأى عيني الكلب أكثر وضوحاً من أيِّ يوم مضى. نظر إلى صدر الجريدة، كان اسمه يتربّع هناك. تذكَّر المقال الآخر،

مقاله اليومي، فتَحَ الجريدة، استقرّت عيناه على صمت كامل، لم يكن المقال هناك! عندها، نبحَ بفرح: عَوْ، عو، عو، عو، عو، عو....

وكان يتمايل مثل درويش: لم يذهب كل شيء سدى. لن يذهب.

ظلَّ الكلب يحدِّق فيه مستغرباً. تنبّه إلى أن فتنة تنظر إليه، قالت: ما الذي حدث؟ ولم يستطع أن يُفسِّر شيئاً سوى أن يصمت فجأة، ويُحدّق في نفسه مذهولاً.

انسل إلى الداخل.. أخفى الصحيفة..

***

جلسوا يتناولون طعام الإفطار، أحمد يحدِّق في وجه فارس، ويتساءل: *أين تلك البراءة؟ لعلنا لا نرى البراءة إلا حين نكون بريئين فقط*، وراح يحدّقُ أكثر في وجه فارس.

جاء زامور حافلة المدرسة عالياً. نهض فارس واندفع حاملاً حقيبته مُغادراً البيت.

***

نبح الكلب في الوقت الذي توقّفتْ فيه سيارة بجانب بيت الجنرال، هبطَ العمّالُ، يُنزلونَ الأبواب. المبنى سينتهي قريباً، إطلالة القرميد تحت شعاع الشمس، بياض الحجارة السّاطع، ارتفاع الأسوار المسلّحة بقضبان الحديد المدببة، الباب الإلكتروني العملاق، كلها هناك! ولكن، بعد أن ينتهي كل شيء، ماذا سيكون مصير الكلب؟

أرعبته الفكرة: *ما هو مصير الكلب؟*

اكتشفَ أنه لم يكن يفكّر، إنه يتساءل بصوت عالٍ، حين أجابت فتنة:

أي كلب؟!

رد بحنق: كلب الجنرال.

تذكّر المساعد الخاص: ألم يقل إن الجنرال لا ينسى كلابه؟!

تمنّى أن يكون كلباً!

- عَوْ، عو، عو، عو..

قالت فتنة: أصبحت طريفاً في الفترة الأخيرة، ألّا تحسّ بما يحدث لنا؟!

ألقى عليها نظرةً شاردة.

قالت: هل تحدثتَ مع صاحبك؟

- مَنْ؟

- حضرته.

- ومَنْ قال لكِ إنه صاحبي؟!

- يا أحمد يكفي! الدنيا كلّها تعرف بذلك.

- أي دنيا؟ وماذا تعرف؟ صرخ بحنق.

- العالم كله يعرف أنك أنتَ الذي تكتب كلمة الصحيفة منذ سنوات، والعالم كله يعرف أن السيارة هدية من الجنرال، والبيت ليست كل حجارته من عرق جبينك!

- وأنت تعرفين ذلك منذ البداية؟!

- قلتَ لك: العالم كلّه يعرف!

أدرك للمرة الأولى أن الجنرال يحتلُّ بيته، ومنذ زمن بعيد، يقاسمه سريره، يقاسمه زوجته، وفارس، وأن كل ما حوله ينهار.

قال: عرفتِ كل شيء من البداية، وسكتِ؟!

وظلت ساكتة، لم تُجب، ألم يسكتْ قبلها بكثير؟!

رنّ جرس الهاتف، مشى نحوه ثقيلاً كقتيل.

- ألو.

- أحمد الصافي؟

- نعم.

- كلب!

وأُقفلَ الخطُّ في وجهه، فسقط فوق أول مقعد قربه.

ونبحَ الكلب في الوقت الذي كانت السيارة تغادر فيه بيت الجنرال. سألته فتنة:

- من كانَ على الهاتف؟

لم يستطعْ الإجابة.

رن جرس الهاتف ثانية، نهض، مشى باتجاهه، ثقيلاً كقتيل.

- ألو.

جاء صوت فتاة أو طفلةٍ ربما، من الطرف الآخر. جاء حاداً كرمح غاضب: بيت أحمد الصافي؟

- نعم.

- أنت هوَ؟

- نعم.

- كلب!

***

الآن أدركَ أن الجريدة أصبحت بين أيدي الناس، كل الناس، في كل البيوت في الساحات، الشوارع، المكاتب، المكتبات، المدارس، الجامعات، في كل مكان.

رن جرس الهاتف ثانية، لم ينهض من مقعده، همّتْ فتنة بأن تنهض، صرخ فيها ألّا تردّ.

كان مكتب الجنرال هو المتّصل هذه المرَّة.

أعاد المساعد الخاص للجنرال السماعة إلى مكانها.

عمّ صمتٌ واهنٌ للحظات، دوّى جرس الهاتف ثانية. نهضَ أحمد مجنوناً، أمسك الهاتف بكل ما فيه من قوة، انتزعه من مكانه، فتقطّعتْ الأسلاك، وقذف به نحو الحائط المقابل. عمَّ الصمت.

***

أوصلَ فتنة إلى عملها، دار في الشوارع، أحسَّ أن كل الناس ينظرون إليه، أن العيون تصرخ به: كلب.. كلب!

أحس بنفسه طافياً كخشبة مُنْهكةٍ في نهر هادرٍ. لم يدْرِ أين سيتوقف. كان يدور فقط.

- عَوْ..

التفتَ أحمد، ظن أن ذلك الطفل الذي كان يُخرج رأسه من نافذة العربة المحاذية لسيارته عند الإشارة الضوئية قد أطلقها. ولأن الذي قالها طفل صغير، نبح أحمد في وجهه مثل جرو: عو، عو، عو، عو.

ظنَّ الطفل أنه يداعبه.

فأخذ ينبح هو الآخر، وبعد لحظة أخرجَ جروٌ سلوقيّ رأسه من نافذة العربة التي يوجد فيها الطفل، وبدأ ينبح هو الآخر: عو، عو، عو، عو، عو! حدّق أحمد الصافي فيما حوله فَزِعاً، رأى المدينة ممتلئة بعشرات الآلاف من الكلاب!! عو، عو...

كانت السيارات المتوقِّفة خَلْفه عند الشارة الضوئية تُطلق أبواقها، حين لمحَ الأخضر يصعدُ نحو سطوع البرتقالي، انتبه إلى ذلك، حاول أن يسير ولكن البرتقالي ارتفع فجأة، دخل في الأحمر واختفى.

***

قررَ أن يختفي، لم يعدْ إلى البيت ظهراً.

لم يستطع الاختفاءَ طويلاً.

هذه المدينة ستبقى قرية مهما اتّسعتْ.

طاف حول الصحيفة، حول مكان الجريمة! حول مقاله، حول مقر الجنرال.

سقطَ الأسود وابتلعَ الألوان كلَّها.

إنه الليل.

صعدَ درجات الجريدة، اندسَّ في مكتبه، اقفلَ الباب خلْفه، رنّ جرس الهاتف: تناول السمّاعة.

جاء صوت رئيس التحرير: أين أنتَ؟ كنتَ ستفضحنا لولا أنني انتبهتُ إلى مقالك الآخر في اللحظة الأخيرة وسحبته من التصوير.

- ...

- على أي حال. مكتب الجنرال اتّصل، أخبرنا أن ننقل إليك رضاهم، حاولوا أن يتّصلوا بك كثيراً، إلّا أن أحداً لم يكن يجيب. عمّ ستكتبُ غداً؟

- لا أعرف بعد.

- على كل، أنا مضطّر الليلة لمغادرة الجريدة، آمل أن تقوم بمتابعة العمل، هناك جلسة حوار مع الجنرال. هل تُوصي بشيء؟!

- شيئاً واحداً أُريده منك، أن تتحدّث معه بشأن البيت، أنت تعرف التفاصيل!

- لقد تحدَّثتُ معه سابقاً. اطمئن، هم راضون عنك هذه الأيام، والجنرال على اطلاع كامل بتفاصيل القضية.

- فقط أُريد أن تُذكِّره.

- ولا يهمّك!!

***

من نافذة مقرّه، مكتبه، كان الجنرال يُطلُّ على الدنيا، وخلفَ الأفق يرى ما لا يُحبه، ما يبعث في نفسه الكثير من عواصف القلق: طائرةٌ شراعيّة تتجاوزُ الحدود الشمالية، ومقاتل واحد يقتحم معسكراً إسرائيلياً بأكمله. قائد إحدى وحداته العسكرية يقود مجموعة مقاتلين "مدنيين" ويعبر الحدود، لينفِّذ عملية عسكرية ناجحة. وتلك، تلك المظاهرات التي بدأت تشتدّ في فلسطين، وبدأت أجهزة الإعلام تطلق عليها اسم "الانتفاضة".

أحسَّ أن عيون كلابه خذلته، وأن عليه أن يتخلّص من بعضها، تحسّس مسدسه، ما للأرض تتزلزل هكذا؟! وللمرةِ الأُولى منذ دهرٍ، شعرَ أنه بحاجة إلى حرسه الخاص.

***

جلس أحمد الصافي في مكتبه ساكناً، حدَّق في اللوحتين اللتين أمامه: *عجيبٌ أمر هذا الغزال، منذ أن جاؤوا به إليّ والكلاب تنهشه.. وظل واقفاً! عجيب أمر دونكيشوت، إنه لا يتراجع رغم ضعفه وهزال فرسه وسمنة سانشو! عجيب! ولكنهم ليسوا من هذه البلاد!*

- وسعد؟!

- مَنْ سعد؟

- سعد "طفل الليلة الطويلة".

- لا أذكُره!

***

- لماذا لا أدخل في الموضوع الآن، عمَّ سأكتب للغد؟!

فكَّر أن يكتب عن الجنرال كرائد للوحدة والحرية وقائد للعروبة! اكتشف أن الموضوع استهلكه رئيس التحرير وكرره آلاف المرات. فكَّر أن

يكتبَ عنه كـأب للمجتمـع ورب للعائلـة الـصغيرة! فكّـر أن يكتـب عـن المظاهرات في الأراضي المحتلة! اكتشفَ أنه غريب عن لغتهـا. مـزّقَ الكثـير من الأوراق. لم تطاوعه الكلمات. وأخيراً وجدها، إنها الفكرة المطلوبة التـي يبحث عنها. قفز فَرِحاً في الهواء: عو، عو، عو، عو، عو..

ضبط نفسه متلبساً بالنباح، جلس مرعوباً وقد طارتْ فرحة الاكتشاف من رأسه.

صدرَ الأمر في وقت متأخر من تلك الليلة، وذلك ما دفعَ الجنود، بحدّ ذاته، للإحساس بخطورة المهمة الموكلة إليهم؛ فلا يُعقل أن يُستلّوا من سُباتهم لسبب تافه! المهمة خطيرة إذن!

كانت محركات السيارات مشتعلة، هدّارةً، توحي بمشهد من فيلم حربيّ، نال الأوسكار عن تقنية الصوت، ولم يكن ذلك غريباً، فالمحرّكات أمريكية. اندفع الجنود إلى الصناديق القاسية للعربات ، وتكوّموا فوق بعضهم بعضا، لا أحد يستطيع أن يتوقّع ماهية الهدف الذي ينطلقون إليه.

السيارات تشقُّ الليل القتيل وصمته المعتاد في المدينة الكبيرة النائمة عَبْرَ شارع المجد فشارع الحرية فشارع الشعب، وتنعطف إلى شارع الشهيد وتوغل في المسافات.

في ليلة غير تلك، كان يمكن أن تمرَّ سيارات مدنية مثل رصاص طائش، ولكنها اختفت تماماً.

انعطفتْ السيارات باتجاه شارع ضيّق مضاء بشحوب واضح..

إذن، الهدف هو السجن. هل حدثَ تمرُّد؟ هل فرَّ بعض السجناء؟

أسئلةٌ كثيرة بلا إجابات.

هبطَ "الأنيق" من عربة مدنية، كانت في مقدّمة القافلة المستنفَرة. بدا أن السنوات التي مرّتْ، منذ التحقيق مع سعد، قد ضاعفت عمره.

منذ ذلك اليوم، راح يحاول إثبات حضوره، قسوته، ساديته، كان يريد التكفير عن جريمة النوم أثناء العمل الرسميّ. حيث ضبطه الجنرال.

المساعد الخاص قال يومها: نطرده سيدي.

قال الجنرال: بالعكس، منذ الآن سيبقى ساهراً إلى آخر عمره.

وهكذا بدأ السهر المتواصل ينخرُ ملامحه..

تراكض الأنيق، تقافز مثل جندب في غابة، يوجِّه الأوامر. منتعشاً كان، اجتمع الجنود في ساحة السجن.

قال: هناك تمرُّد، ومهمّتكم واضحة، أن تحطِّموا أولئك الذين يتطاولون على هذا البلد! يتطاولون على النظام! كنتُ سأقول لكم، أُريد السجناء كلّهم هنا بعد خمس دقائق، ولكن، لا! أُريدهم هنا بعد نصف ساعة، خذوا راحتكم في الدّاخل، حطّموهم، أَفَهِمْتُم، مزِّقوهم!

أُشرعتْ أبواب الزّنازين فجأة، اندفعتْ الهراوات وأعقاب البنادق، البساطير الثقيلة، العيون الباحثة عن فرائسها الغافية. وعلا الصّراخ، أحتلَّ الهواء الساكن في تلك الليلة السّاكنة الهادئة.

كان يحلو للجنود أن لا يعرفوا أين ستقع ضرباتهم. هل كان ذلك يريح ضمائرهم أكثر؟ أم يزيد الأمر إثارة وبهجةً؟

نصف ساعة، نصف ساعة أطول من عمر الدنيا، حطَّتْ بنصالها ووزَّعت اللحمَ الممزّق على ثوانيها. كان الأمر واضحاً: هناك حركةُ احتجاج في السجن، يجري تنظيمها الآن للمطالبة بتحسين أوضاع السجناء، يجب تحطيمها قبل استفحالها، نريدهم أن يترحّموا على أوضاعهم القديمة!

***

وتقدّم الليل..

وجدَ أحمد الصافي أن عليه الإمساك بعنق فكرته، أن يبيضَها كدجاجة ويبتعد. ولكن أين سيبتعد؟! عليه أن يحمل أول نسخة من عدد الغد، يتفحَّصها، يطمئن على أن كلّ ما فيها صحيح، قبل العودة إلى البيت، ما دام رئيس التحرير قد ترك الصحيفة أمانة في عنقه!

أدرك أخيراً أن الوقت بدأ يأكله، لم يُرِدْ أن يُضيِّع أي ثانية.

يجب أن أنتهي بسرعة.

- سأكتب عن النهضة العمرانية التي شهدها البلد في السنوات العشرين الماضية، والمستوى الفني الرائع الذي وصلتْ إليه الهندسة، بذلك أضرب عصفورين بحجر، نعم، بذلك أُفرح الجنرال بمناسبة قرب انتهاء بيته الجديد، وأُذكّره أن لي بيتاً بطريقة غير مباشرة! نعم، سأكتبُ عن العمران، عن الخراب، عن الدمار، عن الهندسة، عن أيّ شيء، المهم أن يتذكّر.

عَبَرَ السطور كنجم يعرف مداره تماماً، صفَا ذهنه. هو يعرفُ أن ذهنه يصبح صافياً تماماً بعد الدّخول إلى الكتابة، وكلّما أوغل فيها ازداد صفاءً. الكتابة هي أكثر الأشياء غرابة في العالم، كيف تتكشّف الخفايا تحت النقطة الصغيرة المتقافزة من حرف إلى حرف، تلك التي يُسمونها: رأس القلم.

تغيّر أحمد الصّافي، لم يعد ذلك الشخص الذي ينبح، صفا وجههُ، هدأ نبضه المتفجّر، وقلقه المتصاعد، أحسَّ أن العالم طوع يديه، كما يريد، وأفضل مما يريد.

***

ضغطَ مفتاح الجرس. هبّ المراسل، حملَ المقال إلى المطبعة. اسند أحمد ظهره إلى الكرسيّ متنفّساً ملء رئتيه. دخل عليه المدير الفني، مرةً، مرتين، ودائماً كان يحمل في يده صفحة جديدة من الجريدة لكي يُلقي أحمد نظرةً عليها قبل دفْعها إلى قسم التصوير. في النهاية تجرأ المدير الفني وقال: هناك،

هناك إشاعات تبدو حقيقية تتردّد هذه الأيام أُستاذ أحمد، وأنت تعرف أن توقعاتي لا تخيب. وكان المدير الفني يشبه الثعلب تماماً.

- ما هي؟

- يقولون إنك ستصبح رئيساً للتحرير!

- من قال لك ذلك؟

- الجميع يتحدَّثون في الأمر.

- وما الذي أدراهم؟

- يقولون بما أنك ستصبح جاراً لحضرته، فإنك حتماً ستكون رئيساً للتحرير!

- لم أفهم!

- يقولون، حضرته لا يقبلُ أن يكون جاره أقلّ من رئيس للتحرير.

- صحيح؟!

- نعم صحيح.

عند ذلك أفلت ذلك النباح اللعين: عو، عو، عو، عو.. الجنرال لا ينسى كلابه!

ذُهِلَ المدير الفني من ردّة الفعل، تراجع خطوات وانسحبَ دون أن يشعر به أحمد الصافي.

في الخارج سأله المراسل: ماذا حدث للأستاذ؟

ردّ: العوَض بسلامتك! إنجن!

***

كان الجنود يطوّحون بالأجساد التي أصبحتْ شبيهة بالجثث؛ يُلقونها في منتصف الساحة. كان يلزمها الكثير من القوّة حتى تتحاملَ على جراحها

وتنهض؛ لم يستطع الأنيق أن يطمئن إلى كفاءة الجند إلّا بعد أن أصبح السجناء في الساحة، وفُتحت عيونُ الكشافات الكهربائية.

هذه هي العملية التي كان يتمنّاها دائماً، أن يأخذ بكل ثاراته مرةً واحدة.

طلبوا من السجناء أن يتوضأوا، وأن يصلوا.

ظنّ بعض السجناء أنهم سيعدمونهم.

ولكن الأنيق صرخ فجأة: بلاش! تيمّموا!

وعندما لم تصدر حركة واحدة عن الأجساد المحطمة. قال: سنساعدهم.

أشار إلى الجنود، فانطلقوا ثانيةً صوب أهدافهم الواضحة، دماؤها تدلّ عليها، وبالبنادق والهراوات والبساطير غسلوهم بالتراب.

عملية تيمّم قسرية.

قال الأنيق الآن نستطيع القول إنكم على وضوء وطاهرون، وبإمكانكم أن تصلوا.

- صلوا، صلوا، صلوا، لحضرته!

وثانيةً بدأ فصل جديد من مسرحية الموت، حين رفض السجناء الاستجابة. اندفعتْ سياط خراطيم المياه. كان باستطاعة الناظر إلى السجناء أن يميّز بعض الوجوه. بعد دقائق من ذلك الحمام الدمويّ، لمحَ الأنيقُ سعد. كان قد تغيَّر. نعم، السنوات هذا الوحش الناعم يترك الكثير من الآثار خلْفه، وإلى ذلك الضرب الذي تلقاه منذ لحظات. لم يُقدَّم سعد بعدُ للمحاكمة، ظلَّ موقوفاً طوال تلك المدّة، كل ما فعلوه أنهم حوّلوه إلى السجن.

قال له الأنيق: أما زلتَ تقرأ قصصاً تافهة مثلك؟!

أشار إلى الجنود أن يبدأوا عملية تفتيش دقيقة للزنازين.

قال: سأُفتش زنزانة هذا! وطالبَ أحد الجنود بأن يجرَّ سعد اويتبعه.

دخلوا الزنزانة. ثلاثتهم، بدأ الأنيق يفتّش بأناقة واضحة. لاحظ أنه لم يزل يتصرّف كما كان يتصرّف أثناء التحقيق. من الصعب أن ننسى عاداتنا.

تحت البُرْش الرّماديّ المُخْضرّ، لمح قصاصات من أوراق الجرائد، وعدداً من صفحات منتزعة من كتاب: "البطل في الزنزانة". كانت الصفحات جديدة، بل يبدو أنها أُحضرتْ لسعد أمس، كيف دخلت؟! لا أحد يدري، ولكنها هنا. بدأ يتصفّحها ويتصفّح قصاصات الجرائد، قصصاً وأشعارا لشعراء وقاصين اهتدى سعد لكتاباتهم خلال وجوده في السجن. فوجٌ جديد من الكتّاب، كم تمنّى سعد أن يراهم، وأن يحصل على نتاجهم كلّه.

قال الأنيق: لديك مكتبة، من أين حصلتَ على كل هذه الأوراق؟

- من الصحف! صحفنا المحليّة!

- وهذه، من أين؟

وكان يشير إلى الأوراق المنتزعة من كتاب.

- كانت في السجن منذ أتيتُ.

- كاذب.

- ...

***

كان سعد قد قرأ مقال أحمد الصافي الأول الذي تصدَّر الصفحة الأولى، المقال الذي لا يذكّر بأحمد القديم أبداً. لم يكن سعد يقرأ لأحمد الصافي الذي يعرفه. ساعتها عصفتْ غابة من الرماح ومزَّقتْ قلبه، وللحظة أحسَّ أنه مكشوف في صحراء عارية لاهبة، وأن الجنود يُلقون القبض عليه للمرة

الثانية! أحسَّ أن مجموعة الحماية انسحبتْ في أكثر الأوقات هو في حاجة إليها. ولكنه هدأ، ساقَهُ قلبُه إلى الزنزانة، اندفع باتجاه البُرْش، أخرج كل ما لديه من قصاصات، وبدأ يقرأ، كُتّاب جدد، فوج جديد. عادت فِرقة الحماية إلى مكانها، تعزّزت من جديد، وتلاشتْ وحشةُ الصحراء من روحه، انقشعتْ غيمة السّواد، أحسَّ أن الدنيا بخير! ولعل أفضل ما حدث أن تلك القصة: "البطل في الزنزانة" وصلتْ فعلاً في ذلك اليوم، فالصديق الذي زاره كان يعرف حاجة سعد إليها.

سأل الأنيق: مَنْ كاتب هذه القصة؟

- غسّان كنفاني.

- من عِندنا هذا؟!

- إنه منّا!

***

راحت خطى الليل تذرعُ الدنيا، تتقدّم مضطربةً إلى الأمام، وهي تعرف نهاياتها، شمسٌ ما ستخرج وتبددها، تفتتُ سوادها، تمزِّقه.

***

"إعلان استملاك"

عملاً بأحكام قانون الاستملاك، أعلن للعموم بأنني ومن تاريخ نشر هذا الإعلان بالجرائد المحلية، سأتقدّم بطلب إصدار قرار بالموافقة على استملاك كامل أراضي منطقة "ضاحية الغابة" والتي تبلغ مساحتها 842 دونماً، استملاكاً مطلقاً فورياً، دون التقيّد بالإجراءات المنصوص عليها في القانون، لغايات استخدامها بما يعود بالنفع على المصلحة العامة، على أن يتم اختيار لجنة لإجراء الكشف الحسّي على العقارات المقرر حيازتها، لإثبات أوصافها بصورة دقيقة ومفصّلة للاستئناس بهذا الكشف لاحقاً.

"مدير مصلحة العقارات"

***

- هذا من اختصاصك، قال مدير الإعلانات للمدير الفني!

- لا بل من اختصاصك أنتَ!!

- حين يتمّ إحضار إعلان في ساعةٍ متأخرةٍ، فإنكم أنتم الذين تقررون النشر أو عدمه!!

- ولماذا يأتي متأخراً في هذه الساعة؟ لقد تمَّ تصوير صفحات الجريدة كلها باستثناء الأولى تقريباً.

- أنت تعرف حساسية هذا الإعلان!

- هناك حلٌّ!

كتب المدير الفني ورقة:

الأستاذ أحمد .. هذا الإعلان جاءنا متأخراً، استلمناه الآن. نرجو أن تقرر ما إذا كنا سنقوم بنشره أم لا.

حمل المراسل الورقة كما حمل طرفة بن العبد[2] رسالةَ موته، ودخل، في تلك اللحظة التي كان فيها أحمد الصّافي يستعيد بعض الجُمل التي كتبها في "كلمة الصحيفة" فَرِحاً.

تناول الإعلان، قرأ الورقة. ثم بدأ بقراءته، وكلّما أوغل في السطور، كانت همهمته ترتفع أكثر، وترتفع. تلك الهمهمة التي ستتحوّل تدريجياً إلى صوت أوضح، مألوف، إلى نباح. لم يُدرك أحمد الصافي أن هذا مجرد إعلان، وأنه ليس قراراً، أن القرار يصدر فيما بعد. لم يُدرك.

- عو، عو، عو، عو، عو، عو، عو، عو، عو.

---

[2] - ولِدَ الشاعر طَرَفَة بن العَبْد حوالي سنة 543م. هجا الملك عمرو بن هند، فحمَّلَ هذا كلاً من طرفة وخاله المتلمّس رسالة مُغلقة، أوهمها أنها تتضمّن مكافأة. كتب فيها (إذا وصلك حامل كتابي هذا فاقطع رأسه)؛ فضّ خاله الرسالة، فنجا. وقيل إن طرفة، حين قتِل، كان في أواسط العشرينات من عمره.

وبدأ يركض خلف المراسل عبر الممرات!

***

كان سعد قد قرأ قصة "البطل في الزنزانة". فيها الإجابة التي يبحث عنها بدقّة. كانت من قصص بدايات غسان كنفاني، كتبها في الكويت، أواخر الخمسينات. كانت تُلبي نداء الأسئلة المجروحة، وتلجم ثيرانَ الخيبة القاتلة.

ظلّ سعد يدور في ساحة السجن: *أحمد الصافي، مش معقول!*

ظل يدور مردّداً العبارة نفسها، حتى الحادية عشرة ظهراً، حين سمع اسمه عَبْرَ مكبر صوت السجن. هناك مَنْ أتى لزيارته.

قرأ في القصة، وهي عبارة عن رسالة من صديق إلى صديقه الكاتب "قرأت لكَ أخيراً مجموعة لا بأس بها من الأقاصيص المنشورة هنا وهناك، وسرّني بالفعل أنك قد تخلصتَ إلى حدّ بعيد من ذلك "الافتعال" اللزج الذي يُثقل طبيعة القصة ويعرقل انسياب حوادثها، إن أصعب ما في كتابة القصة، هو التخلص من ذلك "الافتعال".

لكنني، وأصدقك القول، لا أفهم تماماً ماهيّة هذا الذي يدعونه "الافتعال" فإن كان يُقصد منه ضعف الأسلوب وتقصيره عن إظهار الحادثة بشكلها الطبيعي، فأنا موافق، أما إذا قُصد منه أن الحادثة في القصة هي حادثة تعوزها الإمكانية العفوية، أو أنها حادثة بسيطة إلى حدّ ليس لها فيه أية قيمة، فأنا لا أوافق. إذ إنني أعرف قصة حدثت حقيقة مع واحد من أصدقائي، وكلما فكرتُ في أن أكتبها، لمحتُ فيها مُقدَّماً، خطوطاً ثخينة من هذا "الافتعال" تحدّد بعض جوانب حوادثها، لماذا؟ إنني في الحقيقة لا أدري، أو، ولأعترف بذلك، إن حوادث القصة ذاتها ليست فيها أشياء كثيرة تحفظ عليها بنيانها القصصي، وأخاف أن أزيد على أحداثها كي أُخلّصها من الضعف والافتعال فأقع في الكذب".

"فأنا على هذا أُحبُّ أن أكتبها لك كما هي، احتراماً للبطل والحادثة".

ثم يسرد الكاتب قصة "رياض": "التي تعكس نفسها على جوانب حياته كافة، ويبذل جهداً هائلاً لكي يرتفع بنفسه إلى المستوى الإيجابي المُنتج لقضيته... يبدأ العمل بدأب صامت، وتتوطد صداقته مع أصحاب الدار الجديدة التي سكنها بعد أن غادر الخليج، يزورونه ويزورهم، "حتى عاد مساء يوم مرهَقاً، فوجد الشرطة على الباب، اقتادوه إلى المخفر، نفى كلّ التهم الموجهة إليه. لم تُجْد الشتائم، ولا السياط. بقيَ صامداً ولكن الأمور تجري بقسوة أشد، حُمل إلى غرفة الضابط المسؤول وأعيدتْ عليه مجموعة الأسئلة التقليديّة، وما لبث الضابط أن أراه أوراقاً، كان قد كتبها في غرفته: منشورات. ولكنه تشبّث بالنقطة الأخيرة التي بقيت لصموده، لقد قال إن هذا الخط ليس خطه، وإنه، على هذا، لا يتعرّف على الأوراق".

"وبدأت الخطوط تتجلى شيئاً فشيئاً، إن صاحبة الدار هي صاحبة الوشاية، وهي التي كانت تنسخ أوراقه أثناء خروجه في الصباح".

"لقد قرأت القصة على صاحبين من أصحابي، وطالبتهما بنهاية تسرُّ القارئ، أو على الأقل تُرضيه، فاقترح أحدهما: أن يهرب رياض من السجن بكيفية ما، ولكنه طالب بأن تكون عنيفة، وأن يذهب لتوه إلى الدار فيقابل "أم ..." ليقول لها: إن وشايتها عذبتْ إنساناً وآلمته، وأرهقته، ومن ثم يتركها لتأنيب ضميرها".

"واقترح الآخر-وهو من قراء دوماس-: بل يجبُ أن تجري الحوادث الآن على نحو مغاير: إن المرأة هذه، تشعر فجأة أنها تحبّ رياضاً حباً عنيفاً، ألمْ تقلْ أنها في الثلاثين، حسن جداً.. وتذهب إلى السجن لتقابل رياضاً، ولتقدِّم له الطعام والدخان، ولكنه يرفض، فتصرّ، ويصرّ هو على رفضه، وتشعر فجأة بجريمتها، فتقرر قراراً عنيفاً".

"إنني لا أوافق على هذه الثرثرة، وأدرك كم أنتَ مشمئز الآن، ولكن. أرجو أن تسمع رأيي في الموضوع، إنني متأكد من نهاية هذه القصة، تأكّدي من أن الشمس ستغرب اليوم على طرف الخليج، مثل كل يوم. إن الوضع الهزيل القائم سيتهاوى لاشك، وسيخرج رياض من السجن، وسينغمس مرةً أخرى في مشاغل القضية التي آمن بها، وتعذب من أجلها. أما عن "أم..." فستضيع بين أكوام التجارب الصغيرة التي مرّت به..".

"ماذا ترى أنت؟!"

***

خرج الموظفون يستطلعون الأمر، ثم دخلوا مكاتبهم وأغلقوا الأبواب على أنفسهم، رنّ جرس الهاتف في مكتب أحمد الصافي لم يُجب أحد، ثم رنَّ في غرفة المدير الفني، الذي رفع السماعة بفزع. كان على وشك أن يطلب الشرطة.

- ألو، لا أستطيع التحدُّث طويلاً، اسمعني.

كان صوت رئيس التحرير على الطرف المقابل.

- هل أحمد موجود؟

- نعم!

- قُلْ له إن الجنرال استجاب لطلبه، سيستثنيه من مسألة الترحيل.

عادت الفوضى إلى ما كانت عليه: نباح متصاعد، ضجة. من يجرؤ على الخروج الآن من مكتبه، تعبَ أحمد الصافي، تجرّح صوته، أدرك ذلك: ما الذي يمكن أن ينجزه بصوت مجرّح؟!

غادر مبنى الصحيفة. ركض في الشوارع. لم ينبح سوى مرات قليلة، تلك التي شاهد فيها أو سمعَ كلاباً تنبح.

ليلة جمعة، والمدينة تتناسل هادئة. راح يركض، وعندما بدأ يصعد الطريق باتجاه "ضاحية الغابة"، بدأ يخلع ثيابه تدريجياً، ويلقي بها في الهواء.

تجاوزَ بيته الغارق في العتمة، لم ينتبه لمروره بجانبه، صعد درجات بيت الجنرال، البيت جاهز، نبح الكلب في البداية، ولكنه عاد لصمته، اقتربَ منه أحمد الصافي. النهار لم يكن بعيداً. والجنرال يأتي صباحاً، اقترب من الكلب، احتكَّ به، أَحسَّ أحمد بدفء فروته الناعمة فوق جلده. كانا أشبه بتوأم، البقع السّود تجلل بياض كليهما؛ هكذا كانا تحت الضوء القادم من أعمدة الكهرباء.

ظلا يحتكان الواحد بالآخر كصديقين التقيا بعد غربة طاحنة. طيبان وناعمان، امتدَّتْ يده إلى الطوق المُحْكَم حول رقبـةِ الكلب؛ عندها فقط غضبَ الكلب، زمجر، ونبح، وتقافز مبتعداً، ثم عاد وهدأ. اقترب أحمد ثانية منه، ممارسا طقوس الاحتكاك الطيبة من جديد. اطمأن الكلب، امتدَّتْ يده وانتزعتْ الطّوق بلطف، رآه الكلب يضع الطوق حول رقبته! زمجر من جديد غاضباً. أحسّ بأنه افتقد شيئاً يخصّه، دارَ الكلب حول أحمد، نبح بصوت مرتفع: عو، عو، عو..

ضرب أحمد الصافي الأرض بيديه مهدّدا وهو يحبو على أربع، فابتعد الكلب قليلاً؛ الكلب الذي وجد أن المدى المُتاح له للحركة بات أكثر اتساعاً دون ذلك الطّوق. وابتعد أكثر. اكتشف أن المدى يتَّسع أكثر وأكثر. تبادلا نباحاً لا يعرف أحد معناه، وعندما بدأ الضوء يتسللُ صوب الغابة وضاحيتها، كان الكلب قد أدرك تماماً أنه لم يعد أسير الطّوق، فهبطَ الدّرجات. نبح مرة أخيرة، ثم راح يعدو مبتعداً.

***

سأل الأنيق سعداً: أما زلتَ تقرأ لأحمد الصافي؟!

- ...!

- تقرأ لغيره إذن، لم يعُد يعجبكَ، آه؟! ما رأيكَ أن نروِّض لك غسان كنفاني أيضاً؟!!!

عندها ضَحِكَ سعد، ضحك، لم يستطع أحد أن يوقفه.

وجَّهَ له الجندي ضربة قاسية، زلزلتْ معدته، وعندما أفاق على سطل الماء الذي دُلق على وجهه، كان الأنيق يسأله بحنق:

- هل ستقول لي الآن لماذا ضحكت؟

جمعَ سعد آخر ما تبقّى في جسده من حروف، ونثرها ثانية مبعثرةً في كلمات: غسان استشهد من "سِتَّعْشَر" سنة!

***

أقعى أحمد والطوق محكم حول رقبته.

نبحَ مرةً، مرتين، حين سمع محرك عربة يُدار في الجوار، فبدا وكأن الكلب لم يغب عن المكان. وعندما سمع ذلك الصوت الأليف لمحرِّك سيارة الجنرال، وكانت الساعة تقترب من التاسعة، أطلقَ ذلك النُّباح الطَّرِب النّاعم.

توقَّفتْ السيارة عند الباب، تأمل الجنرال بيته بزهو، أنساه للحظات مشكلاته الجديدة التي بدأ يتخبط فيها، وخارج السّور توقّفت سيارات أخرى، لم تكن سوى سيارات حرسه الخاص.

أخذ يصعد الدّرجات، في الوقت الذي انتشر فيه الحرّاس حول البيت. في يده كيس صغير ممتلئ ببقايا الطعام، وصلَ الشرفة، وهناك رأى الكلب يتمرَّغ على الأرض، الكلب الذي ما لبث أن اقترب من الجنرال، احتكَّ بساقيه. ألقى الجنرال ما في داخل الكيس على الأرض، كان ساهماً، مسحَ فروَة الرأس، صعد الدّرجات إلى الطابق العلوي، كعادته؛ ومن هناك ألقى نظرةً تأمّل فيها الكون متمثلاً في المدينة الكبيرة التي تلوْحُ عن بعد. تأمل الغابة، وما حولها؛ وتوقّفتْ نظرتُه عند بيت أحمد الصافي، ابتسم للحظة

عابرة، وعاد له عبوسه وهو يتأمّل المدينة الكبيرة مـن جديـد. بعيـدة كانـت وغامضة، عندها تحسّسَ مسدسه،

وراح يتابع انتشار حرّاسه في المنطقة...

إبـراهيم نصر الله

مواليد عمّان. اقتُلع أبواه من فلسطين عام 1948

* صــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

الخيول على مشارف المدينة، 1980. المطر في الداخل، 1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح، 1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب 1989. حطب أخضر، 1991. فضيحة الثعلب، 1993. الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994. شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى، 1997. بسم الأم والابن، 1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007.
لو أنني كنت مايسترو، 2009.
أحوال الجنرال، مختارات، 2011. عودة الياسمين إلى أهله سالما، مختارات، 2011

* الروايــات: (الطبعات الأولى):

براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَــوْ، 1990. مجرد 2 فقط، 1992. حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلســطينية (الطبعات الأولى):
(كل رواية مستقلة تماما عن الأخرى)

طيور الحذر، 1996، طفل الممحاة، 2000، زيتون الشوارع، 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004، زمن الخيول البيضاء، 2007- اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009. قناديل ملك الجليل 2012.

الشـــرفات: (الطبعات الأولى): (كل رواية مستقلة عن الأخرى)
شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، 2009. شرفة العار، 2010

* كــتب أُخرى (الطبعات الأولى):

هزائم المنتصرين - السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000
ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002
السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006
صور الوجود ـ السينما تتأمل 2008

* ترجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، التركية، ونشرت مختارات من قصائده بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية...

* أقام أربعة معارض فوتوغرافية وشارك في معرض (كتّاب يرسمون) معرض مشترك لثلاثة كتّاب (فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله)- عمان، 1993.

*نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:
جائزة عرار للشعر، 1991. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.
جائزة سلطان العويس للشعر العربي، 1998.